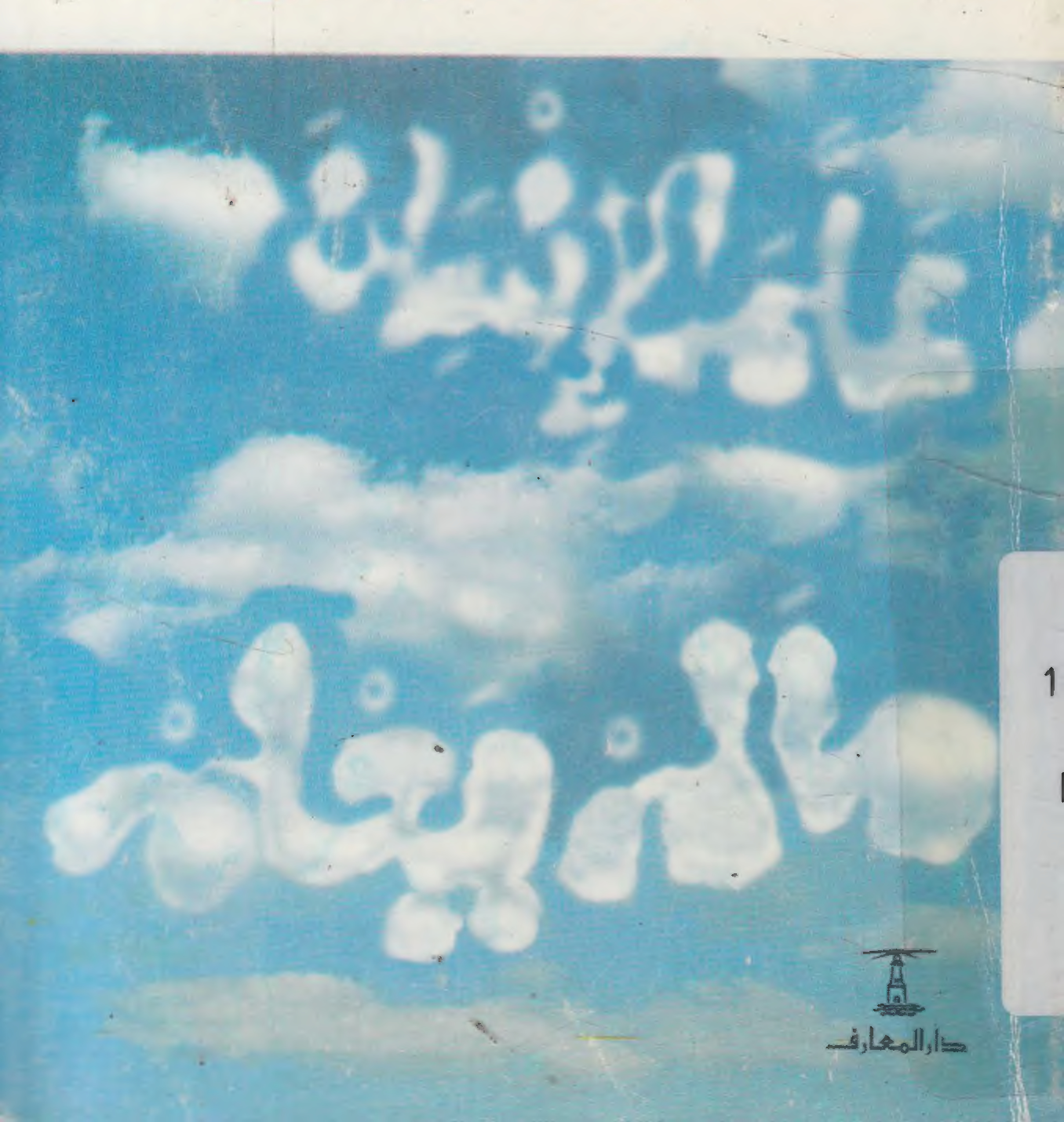
اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور محمد عمارة

إسلامية المعرفة..
ماذا تعنى..؟



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٦٤٢]

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دكتور محمد عمارة

إسلامية المعرفة

ماذا تعني؟



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

تمهيد

إسلامية المعرفة.. أو التأصيل الإسلامى للمعرفة - فى أدق.. وأبسط.. وأوفى التعريفات - هى:

الإيمان بوجود علاقة ما بين المعارف والعلوم التى يكتسبها الإنسان وبين الإسلام الذى يتدين به هذا الإنسان، الذى يكتسب هذه المعارف ويحصّل هذه العلوم.. وذلك انطلاقا من تأثيرات عقائد الدين وأحكام شريعته ومعايير التدين به على العادات والتقاليد والأعراف والمواريث والآداب والفنون التى صاغت وتصوغ «النموذج الثقافى» لهذا الإنسان الذى يخوض ميادين البحث والاكتساب للمعارف والعلوم..

فالمعتقد الدينى يلون نظرة الإنسان للحياة، وفلسفة رؤيته للكون، ويؤثر فى تحديد مقاصده من وراء العلاقات الاجتماعية، وينهض بدور رئيسى فى تحديد معايير الحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والولاء والبراء، والانتماء والمفارقة، وقسمات الذات وسمات الآخر.. إلخ.. إلخ.. ومن ثم يسهم هذا المعتقد الدينى فى تمايز الثقافة، التى تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها وأخطر ميادينها.

وإذا كان التصنيف الموضوعى للمعارف والعلوم يميز - انطلاقا من موضوعات مباحث هذه المعارف والعلوم - بين:

- العلوم الشرعية .. من مثل علوم العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله.. والقرآن وعلومه.. والحديث وعلومه.. إلخ..
- والعلوم الإنسانية والاجتماعية .. من مثل الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والنفس، والفلسفة، والآداب والفنون.. إلخ..

● والعلوم الطبيعية – الدقيقة والمحايدة – .. من مثل علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، والهندسة، والرياضيات.. إلخ..

فإن نوعية ونسبة العلاقة بين الدين وبين المعارف والعلوم تتمايز هى الأخرى فنسبة العلاقة – أى الأسلمة – بين الدين وبين العلوم الشرعية عميقة وعالية وشاملة، لأن الشرع والوحى والدين – أى الوضع الإلهى المطلق – هو موضوع هذه العلوم – حتى لتسمى هذه العلوم الشرعية: علوما شرعية ومعارف دينية بإطلاق وتعميم، ودونما خلاف على هذه التسمية بين أحد من العلماء والباحثين.. حتى أن الاجتهاد البشرى فيها، والفكر الإنسانى فى ميادينها – أى المعرفة الإنسانية المكتسبة فى علومها – محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها، التى هى وضع إلهى ووحى سماوى، يمثل الإطار الحاكم لأى تفكرٌ أو اجتهاد وتجديد فى هذه المعارف والعلوم..

ويلى هذه المعارف والعلوم الشرعية، فى العلاقة بالدين – ومن ثم فى نسبة الأسلمة – معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية، لأن موضوعات هذه العلوم هى النفس الإنسانية، التى تتأثر تجاربها وخبراتها واختياراتها وفلسفاتها وأحلامها وأشواقها بعقائد الدين ومبادئه وقواعده وأحكامه وفلسفته فى التشريع.. فمناهج وتجارب وحقائق ومقاصد هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية موضوعها النفس الإنسانية – على المستوى الفردى والاجتماعى – ولأن هذه النفس الإنسانية قد اصطبغت وتأثرت وتلونت بعقائد المطلق الدينى، ومعايير الحلال والحرام الشرعية،

وصاغتها العادات والتقاليد والأعراف والمواريث المصطبغة أو المتأثرة بمطلقات الدين.. وأيضا، لتنوع وتعقد عوالم النفس الإنسانية وفرادة واختلاف تجاربها الاجتماعية والروحية والفنية، كان تلون وتمايز المعارف الإنسانية فى ميادين هذه العلوم.. فمهما بلغت ضوابط موضوعيتها تظل مستعصية على الحياد الذى تتميز به حقائق وقوانين ومعارف العلوم المادية..

بل إن تأثيرات المعتقد الدينى تظل فاعلة حتى فى نفس الذين مرقوا من الدين وألحدوا فيه.. تظل - كما يقول جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤- ١٣١٤ هـ -١٨٣٨- ١٨٩٧ م) - كأثر الجرح المندمل!.. فإذا هم مرقوا من روحانية الدين ومناسكه وشعائره تظل فيهم عصبيته.. وحتى إذا فارقهم الحب له، فسيظل الكره له شاغلا لنفوس هؤلاء الملحدين فيه!..

فالعروة وثقى، إلى حد كبير، بين المطلق الدينى وبين النسبى الإنسانى فى معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية..

ويلى هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، فى العلاقة بالمطلق الدينى، حقائق ومعارف وقوانين العلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة..

ففى هذا الحقل من العلوم والمعارف - التى تمثل المادة موضوعاتها- يكون الحياد كاملا، والموضوعية تامة فى الحقائق والمعارف والقوانين المستخلصة من التجارب فى موضوعات هذه العلوم.. فحقائق تجارب الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والفلك وطبقات الأرض.. إلخ.. إلخ.. موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية.. وما التطور فيها والتراكم

المعرفى والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، والتقدم على درب كشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب فى ميادين هذه العلوم.. فلا أسلمة على الإطلاق فى الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما ترد الأسلمة - فقط - فى توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين - على المستوى الفردى والاجتماعى - يضبط توظيف هذه الحقائق، بأخلاقيات الدين وقيمه، لتحقق مقاصده الشرعية، بينما الانفلات من الدين قد يوظفها فيما يخالف أحكام الدين.

فحقائق تجارب زراعة العنب - مثلا - لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته.. لكن هذه العقائد هى التى تحدد اختيارات وتضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة.. فالبعض يوظفها لاستثمار العنب كى يكون خمرا.. والبعض يقف بوظائفها - فى زراعة العنب - عند الطيب الحلال..

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات - وهى ثابتة - تقف العقائد عن حدود ضوابط وظائفها.. فالبعض يشوه بها خلق الله، ويخلط بها الأنساب.. بينما تضبط الأسلمة وظائفها وتطبيقاتها بمقاصد الشريعة الإلهية، وأخلاقيات الدين، وقيم الإيمان الدينى..

فالأسلمة، فى ميادين العلوم الطبيعية، لا دخل لها ولا تأثير فى حقائق وقوانين هذه العلوم، وعلاقتها بهذه العلوم خاصة بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة ومقاصد هذا التوظيف، فقط لا غير..

فإسلامية المعرفة - أى العلاقة بين المطلق الدينى والوضع الإلهى الثابت - وبين المعارف الإنسانية - الكسبية والنسبية - قائمة دائما وأبدًا.. لكن نسبتها وميادينها هى التى تتفاوت وتختلف - فى الدرجة - باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.. فهى عالية جدًا فى العلوم الشرعية.. وكبيرة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية.. وواقفة فى العلوم الطبيعية عند فلسفات تطبيقات ووظائف حقائق وقوانين هذه العلوم..

۞۞۞

وإذا كانت هذه هى حقيقة إسلامية المعارف والعلوم.. وهى تبدو على هذا النحو من البداهة التى لا يختلف فيها ولا عليها العقلاء.. فإن غرابة وشذوذ إنكار واستنكار هذه الحقيقة - حقيقة وجود علاقة ما بين المعتقد الدينى - وخاصة دين الإسلام المتميز بمنهاجه الحياتى الشامل - وبين المعرفة تتزايد أكثر وأكثر عندما نرى أن المنكرين لوجود علاقة للإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية لا ينكرون وجود علاقات للفلسفات والأنساق والمرجعيات الفكرية غير الإسلامية بذات المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية!!..

● فلا أحد ينكر وجود فلسفة مادية.. أى وجود علاقات وثمرات وتأثيرات للنزعة المادية والمنهج والمعتقد المادى فى تميز نسق فلسفى - أى علم اجتماعى - بالصبغة المادية.. فلم يكون الإنكار والاستنكار - فقط - للعلاقات والتأثيرات بين الإيمان والنزعة الإيمانية الإسلامية وبين الفلسفة، على النحو الذى يثمر معرفة فلسفية إسلامية مؤمنة؟!

● ولا أحد ينكر وجـود فلسـفة وضعيـة، تقـف بحقائـق العلـم عنـد الواقع وقوانينه ومعارفه.. فلم يكون الإنكـار لتمـيّز معرفـى يحدثـه العـالم والمعارف إذا هو أضاف إلى آيات الكون آيات الوحـى.. وضم إلى معـارف الواقع المادى نبأ السماء عـن المغيبـات التـى لا يسـتقل بإدراكهـا عقـل الإنسان وتجاربه الحسية؟!..

● ولا أحد قد أنكر أو استنكر وجود «علم اجتمـاع ماركسـى»، تلـوّن بالفلسـفة الماديـة الماركسـية – الماديـة الجدليـة.. والماديـة التاريخيـة – وبالمقاصد الشيوعية فى إقامة مجتمع البروليتاريا اللاطبقى..

فلم يكون الإنكـار والاستنكار-فقـط-لوجـود «علـم اجتمـاع إسلامى» كثمرة لعلاقة الإسلام بمناهج وحقـائق هـذا العلـم فـى عقـول ومجتمعـات المتدينين بالإسلام؟!.. وكثمرة لإعمـال سـنن الله وقوانينـه فـى الاجتمـاع البشرى؟!..

● بل لقد قبل الذين ينكرون ويستنكرون إسلامية المعرفة، وجود علم اجتماعى للاهوت التحرير[1] فى أمريكـا اللاتينيـة.. بـل وحـاول بعضـهم استلهام وتوظيف هذا اللون مـن الفلسـفة فـى العلـوم الاجتماعيـة بواقعنـا الإسلامى..

فلـم يسـتنكر هـذا البعـض الصبغـة الإسـلامية فـى علـم الاجتمـاع الإسلامى؟!.. أم أن تأثير «لاهـوت التحريـر» فـى علـم اجتمـاع أمريكـا اللاتينية حلال، وتأثير الإسلام فى علم الاجتماع عندنا حرام؟!..

---

(١) لاهوت التحرير: تفسير اجتماعى للإنجيل، ينحاز إلى الفقراء والمسـتضعفين، تبلـور فـى أوسـاط عـدد مـن القساوسـة الكـاثوليك – ذوى النزعـة اليسـارية.. وربمـا الماركسية – فـى أمريكـا اللاتينيـة.. ولقـد اتخـذت منـه البابويـة الكاثوليكيـة – فـى الفاتيكان – موقفا معاديا.

● ولا أحد ينكر ولا يستنكر ما قرره «ماكس فيبر» Max Feber (١٨٦٤ ــ ١٩٢٠ م)[١] عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية ــ فلسفة واقتصادا واجتماعا ــ بل لقد غدا هذا الذى قاله «ماكس فيبر» إحدى المسلمات عند الذين ينكرون ويستنكرون وجود علاقة بين الدين الإسلامى وبين وجود فلسفة واجتماع واقتصاد متميزة معارفها بالإسلام، ومصطبغة بفلسفة الإسلام المتميزة فى علاقة المسلم - فردا ومجتمعا - بالثروات والأموال.. وذلك انطلاقا من نظرية الخلافة والاستخلاف الحاكمة للعلاقة بين المالك الحقيقى للثروة ــ وهو الله سبحانه وتعالى - وبين الخليفة والنائب والوكيل - وهو الإنسان مالك المنفعة ــ فى الثروات والأموال..

فلم يكون «حلال» الذى قرره «ماكس فيبر» رغم أنها تدع ما لقيصر لقيصر ولا تجعله لله - لم يكون «حلالها» هذا «حراما» على الإسلام - رغم منهاجه الحياتى الشامل ، وتقرير القرآن الكريم لفلسفة متميزة فى علاقة الإنسان - فردا ومجتمعا - بالثروات والأموال ؟! .

۞ ۞ ۞

إننا ــ فى الحقيقة وواقع الأمر ــ أمام تناقض فى مواقف هذا النفر- المنكرين لإسلامية المعرفة - يبلغ درجة الغرابة والشذوذ.. ولا تفسير له إلا الجهل بالإسلام - إذا حسنت النوايا - أو الكراهية لرؤية أية آثار للإسلام فى حياة المجتمعات الإسلامية، ومعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية فى هذه المجتمعات..

---

(١) عالم اجتماع ألمانى.. من أهم مؤلفاته (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) - سنة ١٩٠٥ م - (والمفاهيم الأساسية فى علم الاجتماع) - سنة ١٩٢١ م.

فالليبراليون الرأسماليون - من أعداء إسلامية المعرفة - يقبلون بوجود «روح بروتستانتية» - يسمونها «الإصلاح الدينى» - كى تقبلها جماهير أمتنا - لتصنع هذه الروح الرأسمالية، وتصبغ الليبرالية التى يريدون..

والماركسيون الماديون - من أعداء إسلامية المعرفة - يريدون الفلسفة المادية التى تفسر وتغير «البناء التحتى» - الاجتماعى والاقتصادى وما يرتبط به من بناء فوقى بورجوازى - فى الفكر - لتستبدل به «بناء تحتيا» شيوعيا، و «بناء فوقيا» شموليا.

وعلى ما بين الليبراليين والماركسيين من خلاف يبلغ حد التناقض العدائى.. نراهم يجتمعون على الإنكار والاستنكار لإسلامية المعرفة الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات الإسلام، رغم إيمان كل فريق منهم بتأثير فلسفى وفكرى فى علم الاجتماع الذى يدعو إليه كل فريق، ويريد إقامته فى مجتمعات الإسلام..

فعلاقة البروتستانتية بالاجتماع الرأسمالى - عندهم - مقبولة.. وعلاقة المادية الجدلية والمادية التاريخية بالاجتماع الاشتراكى والشيوعى - عندهم - مقبولة.. بينما علاقة الإسلام بالاجتماع الإسلامى هى وحدها الحرام، عند هذا النفر من المثقفين..

۞ ۞ ۞

وإذا كان «التغريب» هو الداء الذى صنع ويصنع هذا الشذوذ الغريب فى موقف هذا النفر الذين ينكرون علاقة الإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. فلقد يكون مفيدا فى علاج هؤلاء المرضى -

الذين لا يستشهدون إلا بكل ما هو غربى.. ولا يحتجون إلا بما هو غربى.. ولا يسلمون إلا بما هو غربى - قد يكون مفيدا فى علاج مرضهم هذا - الغربى الغريب! - أن نلجأ إلى «الصيدلية الغربية» لنأتى منها بعلاج لهذا المرض الذى بلغ بهم هذا الحال الشاذ والعجيب..

● فالمستشرق الإيطالى «كارل نلينو» Carlo Nallio (١٨٧٢ - ١٩٣٨م) قد كتب دراسة عن «محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية»، أثبت فيها أن للإسلام علاقة بالفلسفة الإسلامية، ميّزت هذه الفلسفة - تبعا لتميّز الإسلام - عن الفلسفة اليونانية[1].. أى أن هناك - برأى هذا المستشرق - إسلامية للمعرفة الفلسفية فى حضارة الإسلام ومعارف المسلمين..

● والمستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم» Alfred Guillaume يؤكد على أن الوسطية الإسلامية، التى جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويؤاخى بين الحكمة والشريعة، قد صبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة المتميزة.. فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمة التدين، وامتازت بها عن الفلسفات الأخرى التى انحازت إلى العقلانية المادية المجردة، أو إلى المثالية الباطنية الخالصة.. فأصبح للإسلام - كما يقول «جيوم» - «فلسفة منطقية.. تدرس بوصفها من صميم العقيدة

---

(١) ترجم هذه الدراسة ونشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى، فى كتابه (التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) ص ٢٤٥ - ٢٩٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.

الدينية..»[1].. فلقد أثمر الإسلام معرفة إسلامية فى هذا العلم الاجتماعى – الفلسفى – ..

● والمستشرق الفرنسى «ديفيد سانتيلانا» David de Santillana (١٨٤٥ – ١٩٣١ م) – وهو حجة فى القانون الرومانى وفى الفقه الإسلامى – يؤكد على علاقة النزعة الدنيوية الغربية بالطابع النفعى الدنيوى للقانون الرومانى.. وعلى علاقة الوسطية الإسلامية – الجامعة بين الدنيا والآخرة – بتميز القانون وفقه المعاملات الإسلامى، عندما ارتبطت فيه كل مسألة قانونية بالضمير الدينى والمقصد الأخلاقى.. أى أن هناك تأثيرا للإسلام فى المعرفة القانونية – وهى علم اجتماعى – وإسلامية للمعرفة القانونية فى حضارة الإسلام.. يؤكد «سانتيلانا» على هذه الحقيقة المعرفية التى مايزت بين القانون الإسلامى وبين القانون الرومانى.. فيقول «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف – (فى الحضارة الغربية) – : مجموعة من القوانين السائدة التى أقرها الشعب، إما رأسا أو عن طريق ممثليه. وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.. إلا أن التفسير الإسلامى للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع للقانون الإسلامى هو واجب اجتماعى وفرض دينى فى الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعى فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضا، فالنظام القضائى

---

(١) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٣٧٩. ترجمة جرجس فتح الله.. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م.

والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التى يستمد منها المجتمع الإسلامى وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية إنما هى مسألة ضمير، والصبغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيدا تاما، والأخلاق والآداب، فى كل مسألة، ترسم حدود القانون. فالشريعة الإسلامية شريعة دينية، تغاير أفكارنا أصلا..»[1].

فالدين الإسلامى وشريعته الإلهية قد صبغت القانون الإسلامى بصبغة ميزته عن القانون الرومانى.. أى أننا بإزاء إسلامية للمعرفة فى هذا العلم الاجتماعى-علم القانون وفقه المعاملات-يؤكد عليها هذا المستشرق الكبير.

فهل تجدى هذه الشهادات الغربية - بحسبانها «روشتات» من «الصيدلية الغربية» لعلاج ذلك المرض التغريبى الشاذ، الذى جعل نفرا من مثقفينا يقبلون بوجود العلاقات بين مختلف الفلسفات والمرجعيات الفكرية - وبعضها ديانات - وبين المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. اللهم إلا إذا كان الأمر بإزاء الإسلام، فإنهم ينكرون ويستنكرون أية علاقة له بالمعارف والعلوم؟!.

لقد سبق لفيلسوفنا ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ - ٩٨٠ - ١٠٣٧ م) عندما أراد معالجة ذات المرض الفكرى، عند نفر من معاصريه الذين لا يؤمنون إلا بما هو يونانى - وكان يسميهم «العوام»! - أن سلك

---

(١) سانتيلانا (القانون والمجتمع) بحث مترجم ومنشور بكتاب (تراث الإسلام) ص ٤١١، ٤٣٨، ٤٣١ مرجع سابق.

نفس الطريق في علاج ذات المرض.. مرض «العاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين[1]، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم»، فعرض نصوص الفلسفة المشائية اليونانية، ليقنع بها هؤلاء «العوام».. ثم نبه على الفلسفة الإسلامية الحقة - المصطبغة والمتميزة بالإسلام - فلسفة المشرقيين - أو الحكمة المشرقية - المتميزة عن الحكمة الغربية - فلسفة اليونان - [2]..

فهل يفيد هذا المنهاج في العلاج؟!..

أم يظل هؤلاء المرضى بالاستلاب التغريبي على جمودهم الفكرى، يتحدثون عن علم اجتماع ماركسي.. أو مسيحي.. أو وضعي.. أو حتى لاهوتي تحريري.. إلخ.. مستثنين - فقط - علاقة الإسلام وتأثيراته في المعارف الإنسانية؟!..

لقد كتب واحد من هؤلاء - منذ سنوات - مقالا ناريا يستنكر فيه استخدام كلمة «إسلامي» في تسمية أحد المستشفيات.. فلما لفتُّ نظره إلى أن بالقاهرة - منذ ١٩٢٧ م - مستشفى - كبيرا وشهيرا - اسمه «المستشفى القبطي» - ولم يهاجم أحد تسميته هذه عبر هذه العقود من السنين - صمت هذا الكاتب.. لكن دون أن يقلع عن الهجوم على

---

(١) المشاؤون هم أتباع مدرسة أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) سموا بذلك لأن التعليم في مدرسته الفلسفية - «اللو قيوم» - كان يتم أثناء السير.. المشي.. ولقد تأسست هذه المدرسة في أثينا سنة ٣٣٥ ق.م واستمرت نحو ألف عام.

(٢) نلينو (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ص ١٧٨ - ٢٨٢. بحث منشور بكتاب (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية). مرجع سابق.

أى إطلاق لكلمة «الإسلامى» على أية مؤسسة من المؤسسات، أو علم من العلوم الإنسانية.. الأمر الذى فضح ويفضح موضوعية هذا النفر من المثقفين والكتاب!..

۞ ۞ ۞

هذه هى «إسلامية المعرفة» - أو التأصيل الإسلامى للمعرفة - .. والتى تعنى - فى أدق وأبسط العبارات - :

العلاقة القائمة بين الدين الإسلامى - عندما يتدين به الإنسان - وبين المعارف والعلوم التى يبدعها هذا الإنسان المتدين بالإسلام..

فالعقيدة - أية عقيدة - وخاصة إذا كانت الإسلام الشامل لكامل منهاج هذه الحياة وما بعد هذه الحياة - إنما تمثل «المنظار» الذى يرى المعتقد بها الكون والاجتماع من خلال عدساته.. فتقوم علاقة ما بين هذه العقيدة وبين المعارف والعلوم التى يبدعها هذا الإنسان.

وهذه العلاقة - إسلامية المعرفة - لا تنفى «النسبية» عن المعرفة الإنسانية.. ولكنها تنبه وتكشف وتبرز علاقة هذه المعرفة الإنسانية النسبية بالمرجعية الدينية المطلقة والمحيطة والكلية.. فهى تنفى النسبية المطلقة عن المعرفة الإنسانية، فى ذات الوقت الذى لا تزعم فيه لهذه المعرفة الإنسانية صفات الإطلاق.. فحتى معارف الإنسان الدينية هى نسبية، وجزء من المطلق الدينى.. والعلم الإلهى هو المتفرد بالعموم والشمول والإحاطة والإطلاق..

وهكذا تبلغ إسلامية المعرفة مبلغ الحقيقة، وتصل فى البداهة إلى درجة المعلوم من الفطرة السوية بالضرورة.. أى التى لا يختلف فيها ولا عليها العقلاء.. مطلق العقلاء.

✡ ✡ ✡

لكن خطر القضية.. وكم اللبس المحيط بها - فى دوائر الخصوم والأنصار! - يستدعى ما هو أكثر من التمهيد.. يحتاج إلى تفصيل للدعوة، يتضمن ضبط مصطلحاتها - .. وإلى إقامة للحجة على صدق مقولاتها.. وإلى نفى للشبهات المحيطة بها.. وإلى تبيان مكانة هذه القضية - إسلامية المعرفة - فى مشروعنا الحضارى، المرشح ليكون دليل عمل ينير لأمتنا طريق النهوض والإقلاع الحضارى، والانعتاق من ربقة التخلف الموروث والاستلاب الحضارى الوافد.. وقبل كل ذلك: جذور القضية فى الموروث الحضارى لأمة الإسلام..

وللوفاء بهذه المهام.. ننتقل من سطور هذا التمهيد إلى صفحات فصول هذا الكتاب.

دكتور محمد عمارة

الفصل الأول

شعار جديد.. لمضمون قديم

« إسلامية المعرفة » .. .. ..

هذا شعار جديد عرفته حياتنا الفكرية والثقافية منذ سنوات .. وكأى شعار جديد فلقد قوبل بردود فعل متباينة ومتفاوتة ، تراوحت ما بين التأييد .. والحذر .. والحماس ، غير الواعى ، له .. أو ضده!..

وإذا كان هذا الشعار جديدا ، وإذا كانت جدته قد كانت سببا فى الكثير من علامات الاستفهام التي قامت من حوله .. فإن من الضرورى ، جلاءً لحقيقته ، أن نبدأ هذا الحديث بالإشارة إلى حقيقتين :

الأولى : أن جدة هذا الشعار – « إسلامية المعرفة » – لا تعنى جدة المضمون الذى يعبر عنه ، ولا جدة القضية التى يطرحها .. فإسلامية المعرفة – كما سيقيم الدليل عليها هذا الحديث – هى مهمة فكرية ، ورسالة ثقافية عرفتها حضارتنا منذ ظهور الإسلام .. وأول كتاب عرض لهذه القضية – فى تاريخنا الحضارى–هو القرآن الكريم : فشعار « إسلامية المعرفة » يوحى بالموقف القائل بقيام علاقة ما بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية.. وهذه هى المهمة الفكرية والرسالة الثقافية التى عرفتها حضارتنا الإسلامية منذ ميلادها وتبلورها، والتى قدمتها بديلا إسلاميًا فى المعرفة للنموذج المادى فى المعرفة، الذى كان معروفا وسائدا فى حضارات أخرى، غير الحضارة الإسلامية، قبل وعند ظهور الإسلام.

ولذلك ، فإننا نأمل أن تكون الإشارات التى يقدمها هذا الفصل لتاريخ مضمون هذا الشعار - علاقة الإسلام بالمعارف الإنسانية - فى تاريخنا الحضارى والفكرى والثقافى ، شاهدا على أن جدة الشعار لا تعنى أن مضمونه « بدعة فكرية » ، لأنه في حقيقته مُسلَّمة من المسلمات الفكرية الراسخة فى علوم حضارة الإسلام ..

والثانية : من الحقائق ، التى نشير إليها الآنَ ، هى أن جدة هذا الشعار قد أثارت - وهذا طبيعى أحيانا - ردود أفعال متباينة تجاهه :

● فهناك - غير الذين ينكرونه ويستنكرونه ، لأنهم ينكرون ويستنكرون - بوعى - أن تكون للإسلام علاقة - أية علاقة - بأى من معارف وعلوم المدنية والحضارة والحياة - هناك - غير هؤلاء - الذين نفهم موقفهم ولابد أن نحاورهم - هناك الذين ينكرونه لجهلهم بحقيقة براميه ومقاصده .. وهناك الذين يظلمون هذا الشعار - « إسلامية المعرفة » - عندما يرفعونه ، ويستخدمونه ، مع جهلهم بحقيقة ما يعنيه !.. فيسيئون إليه أشد من إساءة العقلاء من أعدائه ، لأنهم يقدمون « الحجج » السلبية التى يستفيد منها هؤلاء الأعداء..

فى مواجهة هذا الشعار الذى يطرح قضية : قيام علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية .. وطبيعة ومدى هذه العلاقة.. هناك مواقف، وردود أفعال ..

● فمن الناس من يظن أن « إسلامية المعرفة » هى « كهانة - كنسية » جديدة ، فى دوائر المعرفة .. تريد أن تجعل من علوم ومعارف الحياة ، المدنية والحضارية ، « دينا خالصا ! » فتقدسها قدسية

الدين، وتثبتها ثبات الدين – فهى حجر جديد على الاجتهاد فى علوم الحياة ، وتجميد لها وجمود يحول بينها وبين التطور والتغيير .. وبهذا الفهم للقضية ، نراهم يناصبونها العداء ، مخافة أن تعيد ، من جديد ، السيرة الأولى للكنيسة الأوربية مع العلم والعلماء ..

● ومن الناس من يحسب أن إسلامية المعرفة إنما تعنى فصالا تاما وكاملا مع العلوم والمعارف الإنسانية – الاجتماعية منها والطبيعية – التى أبدعها العقل الإنسانى فى الحضارات غير الإسلامية .. فهذه معرفة إسلامية .. وتلك كافرة .. والفصال كامل والخصام تام بين الكفر والإسلام!.. فهم يخشون أن يفضى أمر إسلامية المعرفة بنا إلى قطيعة مع ثمرات العقل غير المسلم فى المعارف والعلوم ، فنزداد عزلة ونوغل فى الانغلاق ، اللذين يفضيان بنا إلى الذبول والانقراض!..

● ومن الناس من توهم أن إسلامية المعرفة لا تعنى ولا تكلف ولا تقتضى أكثر من إضافة بعض من آيات القرآن الكريم ومن الأحاديث النبوية الشريفة إلى مناهج وحقائق وقوانين العلوم التى أبدعتها مدارس الفكر الغربى – الإنسانية منها والطبيعية – فكما نستعين باكتشافات العلم الغربى على اكتشاف الاعجاز العلمى فى آيات القرآن الكريم ، نستطيع أن نستعين بآيات القرآن الكريم لإضفاء « الإسلامية » على هذا العلم الغربى .. وكفى الله عقولهم « شر » الاجتهاد والإبداع..

● لكن هناك ـ غير هؤلاء جميعا – من يتحفظون على جميع هذه المواقف والرؤى .. ويرون أن إسلامية المعرفة ، وإن تكن شعارا جديدا ، إلا أنه يعبر ، برأيهم ، عن رسالة فكرية جليلة ومهمة ثقافية ثقيلة الحمل! تمثل واحدة من السمات الثوابت والقسمات الأصيلة فى حضارتنا الإسلامية منذ ظهر الإسلام..

وللبرهنة على ذلك .. كان لابد من ضبط وتفسير المصطلح والشعار - إسلامية المعرفة - لتبيان المقاصد ، وتبديد الغموض .. ليؤيد من يؤيد عن بينة .. ويعارض من يعارض عن بينة .. ويقلع الذين يمتهنون القضية عن هذا الذى يفعلون.

ولابد كذلك ، من وضع القضية فى مكانها وإطارها الطبيعى والصحيح .. كبديل إسلامى ، ومذهب إسلامى فى المعرفة ، يقابل ويخالف المذاهب المادية والوضعية والحسية فى المعرفة .. وإقامة الدليل على أن هذا هو مكان وخطر هذه القضية .. كانت البديل الإسلامى فى المعرفة ، الذى واجه به القرآن الكريم مذاهب الشرك فى المعرفة المادية.. وكانت البديل الإسلامى فى المعرفة ، الذى واجه به فكرنا الإسلامى المبكر مذاهب الديانات الوضعية فى المعرفة « الحسية - التجريبية » ، عندما رأتها هذه المذاهب مصدرا وحيدا لمعارف الإنسان .. فكانت هى - إسلامية المعرفة - « مقالة الإسلاميين » - فى المعرفة الإنسانية - التى واجهوا بها مقالات غير الإسلاميين - فى هذا الميدان .

كانت كذلك ، فى النشأة ، وفى التطور .. كما هى الآن ، عندما يطرحها هذا الشعار الجديد - إسلامية المعرفة - ليواجه بها مذاهب الحضارة الغربية فى المعرفة .. المادية منها والوضعية .. والتجريبية .. والوضعية المنطقية .. والسلوكية .. وغيرها من المذاهب التى تشترك فى نفى العلاقة بين « كتاب الوحى » - الدين - وبين « كتاب الوجود» -المُدْرَك بحواس الإنسان ..

وتلك هى المهمة التى تطمح لبلوغها صفحات هذا الكتاب إن شاء الله..

الفصل الثانى

التعريف.. والضبط للمصطلحات

والآن .. .. ..

ماذا يعنى هذا المصطلح – الشعار – « إسلامية المعرفة » ؟؟..

● إن « الإسلامية » ، هى النسبة إلى الإسلام .. وإذا كان الإسلام – لغة – هو الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول ﷺ من البلاغ الإلهى، المتمثل فى القرآن الكريم، ومن البيان النبوى ، المتمثل فى السنة النبوية الصحيحة .. فإن الإسلام – فى الاصطلاح – هو الدين ، الذى وضعه الله، سبحانه وتعالى لعباده ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [1].. فهو : وضع إلهى، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول ﷺ.. من البلاغ الإلهى ، والبيان النبوى..

فالإسلام – فى الاصطلاح – هو: الوضع الإلهى .. وفى اللغة .. هو الانقياد لهذا الوضع الإلهى .. أى الانقياد لله ، ولما جاء من الشرائع والأحكام ، التى تلقيناها عن رسول الله[2].

« فالإسلامية » هى النسبة إلى هذا الدين الذى وضعه الله ، أى إقامة العلاقة مع الوحى ونبأ السماء ..

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٩٠.

(٢) انظر: الجرجانى [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م. و[معجم ألفاظ القرآن الكريم] – وضع مجمع اللغة العربية – القاهرة – طبعة ١٩٧٠م.

● أما « المعرفة » فإنها : خلاف الإنكار .. وإدراك الأشياء وتصورها .. فهى : العلم الكسبى الخاص بالبسيط والجزئى والذى فيه إدراك وتصور – وتلك صفات وجهود بشرية إنسانية–.

وعندما يراد « بالعلم » : الاعتقاد الجازم المطابق للواقع .. أو : إدراك الشيء على ما هو به.. أو : حصول صورة الشيء فى العقل .. فإنه – وفق هذه التعريفات – يكون مرادفا للمعرفة ، لاشتراكه معها فى كونه كسبيا ، معتمدا على الإدراك والتصور .. وخاصا بالبسيط وبالجزئيات..

أما عندما يكون العلم : صفة للإحاطة بالكليات والجزئيات جميعا ، على نحو يكون فيه العلم علّة وسببا للموجود والمعلوم – وليس معلولا لهما – وغير متوقف على الإدراك والتصور – وأمثالهما من الخصائص البشرية الإنسانية – فذلك هو العلم الإلهى.. المفارق للمعرفة .. لأن علم الإنسان ومعرفته معلولة ومسببة عن الموجود ، وليست سببا وعلة لوجود هذا الموجود..

فالعلم: منه الكسبى – المرادف للمعرفة – ومنه غير الكسبى – وهو العلم الإلهى .. ولا يسمى معرفة .. لأن المعرفة كسب ، بالإدراك والتصور ، فى نطاق البسيط والجزئى .. وليس هكذا علم الله ، غير الكسبى ، والمحيط بالكليات والجزئيات..

فكل « معرفة » هى « علم » .. وليس كل « علم » هو بالضرورة « معرفة » .. والله سبحانه وتعالى ، عالم .. ولا يوصف بالعارف .. أما الإنسان فإنه عالم وعارف، بهذا المعنى الذى حددناه..

وفيما هو بسيط. يقال: علمته ، وعرفته .. ولا يقال علمته فيما لا يحاط به ، لخروجه عن البسيط .. ولذلك يقال : عرفت الله .. ولا يقال علمته ! ، لأن المعرفة تقال فيما يُدْرَك بآثاره ، ولا تُدْرَك ذاته..

ولارتباط المعرفة بالكسب وبالواسطة – أدوات الإدراك والتصور – كانت خاصية إنسانية .. ويشهد على هذا قول رسول الله ﷺ : « **أنا أعلمكم بالله ، وإن المعرفة فعل القلب** » ، لقوله تعالى : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ [١] .. ..[٢].

وكما لا يقال: الله عارف.. كذلك لا يقال فى حقه، سبحانه : عاقل: كما لا تطلق الدراية عليه أيضا[٣].

أى أن بين « المعرفة » و« العلم » خصوصا وعموما..

فالمعرفة إنسانية ، لأنها كسبية ، وبالوسائط ، وخاصة بالبسيط والجزئى ، وما يُدْرَك بآثاره ، ولا يُدْرَك كنه ذاته .. وتلك من سمات وخصائص وحدود الإنسان .. أما العلم فإنه أعم من المعرفة ، إذ فيه الكسبى ، الواقف عند البسيط والجزئى – وهذا هو العلم الإنسانى – الذى هو معرفة إنسانية .. وفيه كذلك ، العلم غير الكسبى ، علم ما هو

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٥.

(٢) رواه البخارى.. «ولو سأل سائل: لم قال الرسول: «أعلمكم» ولم يقل : أعرفكم؟. فالجواب: أن مصدر المعرفة النبوية هنا هو الوحى لا الكسب. فهى علم»

(٣) انظر فى هذه المعانى [معجم ألفاظ القرآن الكريم] و [التعريفات] – للجرجانى – و [المعجم الفلسفى] وضع : د. مراد وهبة، ويوسف كرم، ويوسف شلالة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.

مركب، العلم المحيط، والكلى ، والمُسبِّب للموجودات ؛ وليس المنعكس عنها .. وهذا هو علم الله ، سبحانه وتعالى..

ولذلك ، فإن « الوحى »، رغم بلوغه لنا عن طريق الرسول ﷺ هو « علم » ، لا « معرفة » ، لأنه تنزيل الله ، وبلاغ الرسول ، ولا كسب فيه من الرسول ولا اكتساب.. أما فهمنا له، فهو علمنا به ومعرفتنا له، بالكسب والاكتساب!.. فالعلوم الشرعية فيها « علم إلهى» - هو البلاغ القرآنى وبيانه النبوى - وفيها « معرفة إنسانية » - هى اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى البلاغ القرآنى والبيان النبوى..

هذا عن الضبط والتعريف والتفسير لمصطلحات الشعار.. شعار « إسلامية المعرفة ».. فمعناه إذن : العلاقة بين الإسلام وبين المعرفة.. أى الصلة بين « كتاب الوحى» - القرآن الكريم - وبيانه النبوى - وبين « كتاب الوجود » - ومعارف الإنسان فى علوم الوجود - الإنسانية منها والطبيعة..

فهى - إسلامية المعرفة - إذن: المذهب القائل بوجود علاقة بين الإسلام وبين المعارف الإنسانية ، والرافض لجعل الواقع والوجود وحده المصدر الوحيد للعلم الإنسانى والمعرفة الإنسانية..

هى المذهب الذى يقيم المعرفة الإنسانية على ساقين اثنتين: « الوحى» - وعلومه - و « الكون » - وعلومه - .. وليس على ساق واحدة هى « الوجود »..

ولذلك، كان تميز هذا المذهب فى المعرفة، أيضا باعتماد كل أدوات وسبل المعرفة ، المناسبة لإدراك حقائق ومعارف كل من المصدرين..

وليس، فقط، اعتماد الحواس - وتجاربها - لأنها إن نهضت بمهام الإدراك لحقائق « الوجود » « وعالم الشهادة » ، فلن تفي بإدراك حقائق وتصورات « كتاب الوحى » « وعالم الغيب »..

وإذا كانت المعارف والعلوم منها ما هو : « إلهى - شرعى » ، ومنها ما هو : « بشرى.. ومدنى.. وحضارى.. ودنيوى ».. فإن هذا التقسيم لا يعني « الفصل » التام بين « الإلهى - الشرعى » وبين « البشرى - المدنى ».. وإنما يعنى « التمييز » فقط، بين العلوم والمعارف التي « موضوعها: الوحى - القرآن - وبيانه - السنة ».. فهى : إسلامية الموضوع والمصدر والمنطلقات والمقاصد والغايات .. وفيها من « المدنى » : اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى فهم الوحى وبيانه ، وبذلهم الوسع واستفراغهم الجهد فى استنباط الجزئيات من الكليات .. وفى تقعيد ذلك علوما لها هندسة العلوم!..

« التمييز » - وليس « الفصل » التام - بين هذه العلوم « الشرعية » وبين العلوم « المدنية البشرية الحضارية » - الإنسانية منها والطبيعية - والتى موضوعها « الكون » - مادته.. وظواهره.. وطاقاته - و«النفس الإنسانية» - فى ذاتها.. واجتماعها.. وعلاقاتها.. فموضوعات هذه العلوم « المدنية » ومنطلقاتها ليست «الوحى والدين» ، وإنما هى «الكون والإنسان والاجتماع الإنسانى »..

وإذا كانت العلوم والمعارف « الإلهية - الشرعية » هى إسلامية الموضوع والكليات والمنطلقات .. وفيها من « المدنى » اجتهادات المجتهدين وفقه الفقهاء فى الفروع والجزئيات وفى التقعيد .. فإن علوم

« الكون » ومعارفه « بشرية - مدنية » الموضوع والكليات والمنطلقات.. وإسلاميتها إنما تعنى إيجاد علاقة بينها وبين السنن الإلهية ، التى جاء بها الوحى ، فى الكون والإنسان والاجتماع .. وكذلك توظيف هذه العلوم والمعارف - عن طريق أسلمة فلسفتها - لتحقيق المقاصد والغايات الشرعية التى جددها الوحى « حكمة » لخلق الله، سبحانه وتعالى ، الكون والإنسان .

فعلاقة « كتاب الوحى : الإسلام » بالمعارف قائمة - أو يجب أن تقوم - فى كل أنواع المعارف والعلوم.. لكن المدى المُحَقَّق « للإسلامية » فى هذه المعارف والعلوم يتفاوت، « كمًّا » و « كيفا »، فى « الإلهى - الشرعى » منها عن « البشرى - المدنى » .. كما يتفاوت فى «الإنسانى - الاجتماعى » منها عن « الطبيعى »..

هذا عن التعريف.. والضبط لمصطلحات هذا الشعار..

الفصل الثالث

أمثلة.. وتطبيقات

وإذا كان هذا هو معنى المصطلح والشعار : « إسلامية المعرفة » .. أى إقامة العلاقة بين « الإلهى » و « الإنسانى » فى العلوم والمعارف.. والعلاقة المناسبة التى تقيم المعرفة الإنسانية على الساقين -« الإلهى » - « والكونى » - فتحفظ لها وعليها « التوازن - الحق » ، وتعصمها من « الثنائية .. والانشطار » ، وذلك دون أن يصبح « الإنساني » « إلهيا » ، له قدسية الإلهى وثباته .. ودون أن يصبح « الإلهى » « إنسانيا » ، كما هو الحال عند الذين جعلوا الدين وضعا بشريا وإفرازا لعقل الإنسان وثمرة من ثمرات الاجتماع الإنسانى .

إذا كان هذا هو المعنى المراد من المصطلح والشعار .. فإن قضيتنا الأساسية - قضية إسلامية المعرفة - هى خاصة بهذه العلوم والمعارف « البشرية - المدنية » .. فهى التى من الممكن أن تكون « إسلامية » - إذا قامت العلاقة بينها وبين « كتاب الوحى » ومن الممكن أن تكون « لا إسلامية » - إذا وقفنا بمعارفها عند « كتاب الوجود » والأدوات الحسية للإدراك ..

وإسلامية هذه المعارف معناها : أن يصدر إدراكنا وتصورنا ومعرفتنا لموضوعاتها حال استحضارنا السنن والقوانين والضوابط والمقاصد الشرعية المتعلقة بها ، والتى جاءت « فى كتاب الوحى » وفى بيانه النبوى ..

أى اكتشاف علاقة « كتاب الوجود » بـ « كتاب الوحى » أثناء دراسة وتطبيقات هذه العلوم البشرية - المدنية .. الحضارية ..

ولعل هذا الكتاب ، عندما يركز على معنى إسلامية المعارف الإنسانية ، أن يقيم الدليل - ولو بشكل سريع وغير مباشر - على « إلهية» «العلم الدينى»، الذى زعمت مذاهب المعرفة المادية والوضعية بشريته ! .. ولحسن الحظ . فليست هذه بالقضية المثارة ، وذات الأنصار، فى واقعنا الفكرى .. وإنما القضية المثارة .. والتى تستحق التركيز عليها ، هى إسلامية أو لا إسلامية معارف وعلوم الإنسان ! ..

وإذا كان الأمر كذلك .. فلعل أمثلة نضربها على ما تعنيه إسلامية المعرفة فى بعض قضايا هذه العلوم والمعارف البشرية - الاجتماعية منها والطبيعية - لعل أمثلة نضربها على ما تعنيه هذه العلاقة، المحققة للإسلامية ، أن تكون مفيدة بل وضرورية، عند هذا الحد من هذا البحث.

● فنحن ، مثلا ، إذا درسنا علم الاقتصاد ، باعتباره : العلم الذى يبحث فى مشاكل التوفيق بين الموارد المحدودة وحاجات الإنسان غير المحدودة ، والمتفاوتة فى الأهمية .. أى علم تدبير الحلول لمشكلة الإنسان الاقتصادية - التى تتعدد فيها غاياته .. وتختلف أهمية كل منها .. وتقل وسائل الوصول إليها .. مع إمكانية استعمالها فى أغراض متضاربة[1]..

---

(١) انظر - فى هذا التعريف - [معجم العلوم الاجتماعية] - وضع اليونسكو طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م.

إذا نحن درسنا علم الاقتصاد بهذا الاعتبار، وفقط. كانت المعرفة الاقتصادية المستخلصة من هذه الدراسة متحررة من « الإسلامية ».

أما إذا نحن درسنا الاقتصاد باعتباره علم تدبير إشباع وكفاية الاحتياجات ، فى ضوء الموارد ؛ وعلى ضوء وفى إطار : السنن الإلهية والضوابط الشرعية والمبادئ والكليات الإسلامية - من مثل فلسفة الإسلام فى الملكية - الله هو المالك الحقيقى - مالك الرقبة - فى الثروات والموارد والأموال .. ونظرية الاستخلاف والخلافة الإنسانية عن الله - استخلاف الإنسان ، من حيث هو إنسان ، مستخلف عن الله فى الموارد والثروات والأموال .. له فيها ملكية مجازية - ملكية الانتفاع.. المحكومة فى الحيازة .. وفى الاستثمار .. وفى الانفاق - بمقاصد الشريعة ، التى هى بنود عقد وعهد التوكيل والاستخلاف ..

إذا نحن درسنا الاقتصاد فى ضوء هذا «الإطار الإلهى»، نكون قد أقمنا علمه على ساقين، واستقينا معارفه من مصدرين « كتاب الوجود » - الموارد .. والاحتياجات - و «كتاب الوحى» - الفلسفة الإسلامية فى الأموال - وهنا تتحقق « الإسلامية » لـ« المعرفة » الاقتصادية ، على النحو الذى يميزها عن نظيرتها فى الفلسفات والمناهج المادية والوضعية ..

وإن حال نبى الله شعيب ، عليه السلام ، مع قومه - أهل « مدين » - والحوار الذى دار بينهما - والذى حكاه القرآن الكريم - حول المفاهيم الاقتصادية ؛ وضوابطها الدينية وحول التطبيقات والمعاملات الاقتصادية ، المضبوطة بالضوابط الدينية .. أو المتحررة من هذه الضوابط. إن هذا الحوار لهو نموذج لهذا الذى نقول ..

فشعيب ، عليه السلام ، كان يرى : أن التوحيد والإيمان والصلاة والعبادة – أى الدين – يقتضى ضوابط للسلوك الإنسانى فى الاقتصاد والمعاملات المالية – توفية المكاييل والموازين بالقسط (العدل)، والامتناع عن بخس الناس أشياءهم فى البيع والشراء.. والحذر من الإفساد فى الأرض.. إلخ . فدعا قومه إلى إقامة العلاقة بين « الدين » وبين «الاقتصاد » .. فى الفكر والتطبيقات ..

أما قومه، الذين عصوه ، فإنهم كانوا يرفضون الربط والعلاقة بين «الدين» وبين «المعاملات المالية والاقتصادية» .. فهو يريد اقتصادا مضبوطا بضوابط الدين ، قائما على معارف «الوحى» و «الواقع» كليهما.. بينما هم يريدون الفصل ما بين الدين والاقتصاد .

هو يريد «إسلامية الاقتصاد»–فالدين عند الله الإسلام–فى جميع الرسالات، وعند كل المرسلين–وهم يريدون تحرير الاقتصاد من العلاقة بالإسلام .

والقرآن الكريم يحكى هذا الحوار ، المجسّد لهذه القضية .. والذى بدأه نبى الله شعيب ، عليه السلام ، مخاطبا قومه ، فقال :

﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ۞ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ۞ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[١] .

---

(١) سورة هود الآيات ٨٤ : ٨٦.

لكن قومه أجابوه –مستنكرين دعوته لإسلامية الاقتصاد، وضبط المعاملات المالية بضوابط الدين – ومدافعين عن مذهب تحرير الاقتصاد من العلاقة بالدين .. فقالوا : ﴿ **يا شعيب ! أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا او أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد**﴾[1] ..

لقد عجبوا من ربط دعوته بين « التوحيد » للمعبود ، وبين « ضبط التصرفات المالية » بضوابط « دين ودعوة التوحيد » .

فرد عليهم شعيب ، معلما إياهم أن الدين – دين البيّنة الإلهية – يقتضي ضبط الأموال – التى هى رزق الله – بضوابط الإصلاح الدينى .. وذاكرًا لهم أنه يريد لهم الالتزام بما يلتزم هو به ، حتى لا يحل عليهم غضب الله ، الذى حل بالأقوام السابقين ، الذين عصوا نوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا ، عليهم السلام .. فقال :

﴿ **يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾[2].

على هذا النحو حكى القرآن الكريم ذلك الحوار الذى دار بين شعيب وبين قومه، حول علاقة « كتاب الوحى» بـ«واقع الاقتصاد» .

---

(١) سورة هود الآية ٨٧.

(٢) سورة هود : الآيتان ٨٨ ، ٨٩.

فإذا حسب الإنسان نفسه سيد هذا الكون .. واعتقد الإطلاق والإباحة الكاملة لحريته فى التصرفات المالية والتدابير الاقتصادية ، فلن يراعى - فى طرائق الكسب .. والاستثمار .. والإنفاق - إلا منفعته ، ولذته ، ومصلحته - وفق معاييره الإنسانية البحتة فى «المنفعة» و«اللذة» و«المصلحة» - وهنا يكون اقتصاده متحررا من ضوابط الوحى والدين.

أما إذا آمن الإنسان بأنه ليس سيد هذا الكون، وإنما هو خليفة عن سيد هذا الكون وبارئه وراعيه ، سبحانه وتعالى.. وأنه ليس مالك الرقبة - المالك الحقيقى.. والمطلق الحرية.. فى الأموال والموارد والثروات.. وإنما هو وكيل ومُسْتَخْلفَ فى هذه الموارد والأموال والثروات.. فإن طرائقه، عندئذ فى الكسب .. والاستثمار- والإنفاق ، لابد وأن تكون - إذا أراد أن يكون مطيعا لمن استخلفه - محكومة ومضبوطة بالإطار والفلسفة والمبادئ المتمثلة فى عقد وعهد الاستخلاف .. أى المقاصد الشرعية فى الأموال .. وهنا ينضبط الاقتصاد بكافة الضوابط الإسلامية ، التى جاء بها «الوحى» و«بيانه» فى الكسب والاستثمار والإنفاق.. من مثل: فلسفة الإسلام فى الملكية والحيازة.. وأحكامه فى الكنز.. والاحتكار.. والفروض التى فرضها الله فى الأموال.. والقواعد التى قررها للمعاملات..إلخ.

وهنا - بإقامة هذه العلاقة بين آيات الاقتصاد فى « كتاب الوحى » وبين باب الاقتصاد من « كتاب الكون » ، تتحقق إسلامية الاقتصاد ، فى المعرفة وفى التطبيقات !..

وإذا نحن درسنا علم السياسة ، سياسة المجتمع ، والدولة ، والعلاقات الدولية ، باعتبار السياسة هى : الإدراك والتصور والعمل

لما هو « ممكن » من الخيارات « الواقعية » والقائمة والمحتملة ، تحقيقا للمصلحة - مطلق المصلحة .. وللمنفعة - مطلق المنفعة - واقفين بهذا العلم عند كونه « فن ممارسة القيادة والحكم ، وعلم السلطة أو الدولة .. وفرع « العلم المدنى » ، الذى يبحث أصول الحكم وتنظيم شئون الدولة تدبيرا تغلب فيه الجودة والإتقان ..

إذا نحن درسنا علم السياسة ، باعتبار أن هذه هى مضامينها ومقاصدها ، كانت دراستنا له متحررة ومتحللة من الإسلامية .. فلا تكون السياسة ، عندئذ « سياسة شرعية » .. وهذا المنحى فى دراسة السياسة هو الذى جعلها فى المنظور الغربى « نفعية صرفة » - دون تقييد النفع بالقيود الشرعية - فبررت غاياتها كل الوسائل ، بصرف النظر عن مدى أخلاقية تلك الوسائل .. فكان « الصراع » و « القوة » أهم العناصر الرئيسية فى المفهوم الغربى للسياسة[1].

أما إذا نحن أقمنا العلاقة بين «الإسلامية» وبين «المعرفة السياسية».. أى الصلة بين «لشرعى» و«المدنى» فى هذا العلم - الذى هو من العلوم «الإنسانية - المدنية » - فإننا سنضبط مفاهيمه وممارساته بالمنطلقات والمقاصد الشرعية ..

وهذه العلاقة بين «الشرعى» و«المدنى» لن تجعل السياسة دينا خالصا، ومقدسا، ثابتا - لأنها ليست من أركان الدين وأصول الاعتقاد

---

(١) انظر فى هذه المضامين : [المعجم الفلسفى] وضع مجمع اللغة العربية - القاهرة سنة ١٩٧٩م. و [معجم العلوم الاجتماعية] وضع اليونسكو - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م. و [قاموس علم الاجتماع] بإشراف د. عاطف غيث طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م. و [موسوعة السياسة] المؤسسة العربية للدراسات والنشر -بيروت سنة ١٩٨٣م.

وثوابت الشرع – ولم ينزل الوحى وينطق الرسول ﷺ بكل ما هو لازم لها وفيها .. كما أن إقامة هذه العلاقة بين « الإسلامية » وبين « المعرفة السياسية» .. لا تعنى بحال من الأحوال تجاهل « الواقع السياسى» وخياراته، ولا التقليل من مكانته فى المعارف السياسية .. ولا تجاهل «المصلحة والمنفعة » المبتغاة من علم السياسة. وإنما تعنى هذه العلاقة : الإضافة إلى « الواقع » وضبط خياراته ، وليس إلغاءه أو تجاهله أو الغض من قيمته، وضبط « المصلحة والمنفعة » وليس تجاهلها .. فهى تضيف إلى «الواقع» ، كمصدر للمعرفة السياسية، «مصدر الوحى» بسننه الإلهية فى الاجتماعى الإنسانى ، وبالقيم والتكاليف والمقاصد الشرعية والحكم المراد تحقيقها من الاجتماع والمجتمعات .. وتضبط «المصلحة والمنفعة» حتى تكون «المصلحة الشرعية المعتبرة»، وليست المصلحة المطلقة والمتحررة من أخلاقيات الدين.

فهى العلاقة التى « تضيف .. وتضبط » تضيف « للواقع المادى » و « للمعرفة الحسية » .. وتضبط « الخيارات » المختارة بالمقاصد الشرعية التى حددها الإسلام لسياسة الناس ..

وعندئذ لن نجد السياسة : « فن الممكن من خيارات الواقع » – هكذا بإطلاق – وإنما سنجدها : « الأفعال والتدابير التى يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح – بالمعنى الإسلامى – وأبعد عن الفساد – بالمعنى الإسلامى – حتى وإن لم ينزل بها الوحى أو يشرعها الرسول » .. كما قال واحد من علماء السلف – على بن عقيل البغدادى [٤٣١ – ٥١٣هـ / ١٠٤٠م – ١١١٩م].

وسنجد فى السياسة ، عندئذ : « الكليات – والمبادئ – الثوابت » التى تمثل « أطرا » « للجزئيات – الفروع – المتغيرات » ، التى تتطور

بحسب « المصلحة الشرعية المعتبرة » ، ووفقًا لاختلافات الأزمان والأماكن وتبدل العادات والأعراف[1].

وفى « السياسة الشرعية » سنجد «للدولة-السلطة » معنى متميزا عن معانيها فى «السياسة المدنية»، غير الإسلامية .. فهى ليست الجهاز المحايد تماما بين طبقات وفرقاء المجتمع .. وليست جهاز القوة والقهر للطبقات والفرقاء المحرومين من السيطرة والسيادة فيها .. وإنما هى « دولة التوازن » بين الفرقاء الممثلين للتعددية فى مجتمعها .. فالتوازن هو الوسط .. أى العدل .. بين الفرقاء المتعددين..

● ففى قانونها توازن بين مبادئ الشرعية .. التى هى حاكمية الله - « السيادة » - وبين فقه العاملات - الفروع - الذى هو ثمرة لاجتهاد مجتهدى الأمة ، ينمو ويتطور مواكبة للمصالح الشرعية المعتبرة ..

● وفى قيادتها توازن بين « عدل ولاة الأمر » وبين « طاعة الأمة ».. فانتفاء « العدل » يحل الأمة من « طاعة » أولياء الأمور !.. وأعلى مراتب رأس الدولة هى مرتبة «الاجتهاد» - ولا عصمة لمجتهد - أما الأمة فلإجماعها « العصمة » .. « وإن أمتى لا تجتمع على ضلالة»[2].. وحتى عندما كان رأس الدولة «النبى -الرسول» الذى يوحى إليه ، فإنه كان يميز بين « تبليغه عن ربه » ، الذى هو معصوم فيه ، لا ينطق عن الهوى .. وبين « إمامته السياسية وقيادته

(١) انظر : ابن القيم [إعلام الموقعين] جـ ٤ ص ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م. و [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١٧ - ١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

(٢) رواه ابن ماجة ..

للدولة»، بالاجتهاد البشرى والإنشاء للتدابير والسياسات .. وعن هذه الاجتهادات السياسية تحدث ﷺ في مرض موته ، عندما صعد المنبر وخطب الناس فقال : « **أيها الناس ،من كنت جلدت له ظهر فهذا ظهرى فليَستَقِدْ**[1] **منِّى ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منى ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى ..** »[2] ! ..

« فالعصمة » للأمة .. وأعلى مراتب الحاكم هى « الاجتهاد » ، حتى ولو كان نبيا ورسولا ..

● وسنجد « شورى الأمة » مقيدة بسيادة وحاكمية الشريعة - التى هى وضع إلهى - وفى ذات الوقت هى ملزمة لدولتها .. فهى فريضة إلهية وضرورة شرعية واجبة ، وليست مجرد « حق » يجوز لها أن تتنازل عنه إن هى أرادت ذلك .. هى فريضة حتى على رسول الله ﷺ .. ﴿ **وشاورهم فى الأمر ..** ﴾[3].. وصفة من صفات الأمة المؤمنة .. ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[4]. وهى ملزمة للحاكم ، حتى ولو كان نبيا ورسولا .. لأنها اجتهاد فيما فيه اجتهاد ، ولم يقطع الوحى فيه بتشريع .. وشورى الأغلبية نافذة فى كل الحالات .. ورسول الله ﷺ ،

---

(١) أى فليقتص..

(٢) رفاعة الطهطاوى نهايةالايجاز في سيرة ساكن الحجاز - جـ ٤ ص ٣٨٨ من [أعماله الكاملة] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م.

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٩.

(٤) سورة الشورى الآية : ٣٨.

هو القائل لأبى بكر وعمر: «**لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما..**»[1].. والقائل - وهو رأس الدولة وحاكمها - : «**لو كنت مُؤَمِّرًا أحدًا دون مشورة المؤمنين لأَمَّرْتُ ابن أم عبد !**»[2] - عبد الله بن مسعود .

وعلاوة على أن « إقامة الدولة » إنما تتم بشورى الأمة واختيارها وبيعتها .. فإن حق الطاعة الذى « للدولة » على «الأمة » يظل مشروطا ومرهونا ببقاء «الدولة» ممثلة « للأمة »، وموضع الرضا منها .. فالقرآن لم يتحدث عن « ولى الأمر » الفرد .. وإنما تحدث عن « أولى الأمر » - فى الموطنين اللذين ورد فيهما هذا المصطلح فى القرآن الكريم - لقد اختار صيغة « الجمع » لا «الفرد» .. وربط الطاعة « لأولى الأمر » بكونهم من « الأمة » ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**﴾ [3] .. ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم..** ﴾ [4] .. فهو يزكى القيادة الجماعية الشورية للدولة .. ويشترط لطاعة أولى الأمر من قبل الأمة ، أن يكونوا منها ، أى موضع اختيارها ومصدرا لثقتها، وأهلا لقيادة دولتها وسياسة مجتمعها ، والممثلين لمصالحها الشرعية المعتبرة..

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد.

(٣) سورة النساء الآية : ٥٩.

(٤) سورة النساء الآية : ٨٣.

● وسنجد فى « أمة » هذه « الدولة » : التعددية فى إطار الوحدة .. تعددية أهل الشرائع الدينية المختلفة ، فى إطار الإيمان الديني .. وتعددية التيارات التى تتنوع اجتهاداتها فى الفروع ، داخل إطار الوحدة فى الأصول ..

سنجد ذلك -ومثله كثير - في «دولة» «السياسة الشرعية »، التى تتميز «معرفتها السياسية» بـ«الإسلامية»، أى إقامة العلاقة بين ماهو « شرعى » وما هو « مدني » فى هذا العلم من علومنا الإنسانية.

● وإذا نحن درسنا موضوعات « العلم الزراعى »-أرضا.. وبذرا.. وماء.. ومناخا - فإن حقائق هذا العلم وقوانينه- كواحد من العلوم الطبيعة - لن تتغاير بتغاير معتقدات وحضارات وقوميات ولغات الدارسين.. ففى العلوم التى تتميز « موضوعاتها » بالثبات والحياد .. تتميز حقائقها وقوانينها، هى الأخرى، بالثبات والحياد - فهى « مشترك إنساني عام »- ليس فيها شرقي وغربى، أوإسلامى ومسيحى أو مؤمن وكافر.. «فالواقع» هو مصدر معرفتها.. «والحواس» هى أهم أدوات المعرفة فيها.

لكن « إسلامية العلم الزراعى » ، تتأتى عندما نقيم العلاقة بين المقاصد الشرعية من الزراعة وبين تطبيقات ووظائف حقائق وقوانين هذا العلم الزراعى .. أى عندما نقيم العلاقة بين « الخصوصية الإسلامية » فى « فلسفة العلم الزراعى » وبين « حقائق وقوانين الزراعة » . التى هى « مشترك إنسانى عام ».

فحقائق وقوانين العلم الزراعى - ككل حقائق وقوانين العلوم - إذا نحن وظفناها فى دعم الإيمان بخالق هذا الكون ، الذى أمرنا بالنظر والتدبر ، والذى أعاننا عليه، قادنا هذا الموقف إلى العلماء الذين هم أكثر خشية لله ، لأنهم الأكثر معرفة بأسرار العلوم الكاشفة عن بعض أسرار الله فى الأكوان . ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [1].

أما إذا لم توظف الحقائق العلمية هذا التوظيف الإيمانى ، فإنها قد تقود وتفضى إلى علماء لا يعلمون سوى ظاهر من الحياة الدنيا .. ومن ثم يقودهم الغرور إلى تأليه العلم والعلماء باعتباره « دين العصر » وباعتبارهم «الروحانيين الجدد»!.. ولقد شهدنا ، عندما تقدمت العلوم فى أوربا حديثا، وفى ظل «المادية.. والوضعية» «علماء» صاحوا صيحة منكرة ، فقالوا : لقد مات الله ؟! .. تعالى الله عن ما صاحوا به علوا كبيرا ..

ووجه آخر لهذه القضية .. فكما يمكن توظيف حقائق العلم لدعم الإيمان .. أو لزعزعته .. فإن من الممكن توظيف تطبيقات هذه الحقائق فى تحقيق مقاصد الشريعة ، طاعة الله ، سبحانه وتعالى ، أو فى المحرمات ، عصيانا لله ! .. فإذا كانت حقائق زراعة « العنب » لا تتغاير بتغاير المعتقدات .. فإن زراعة « العنب » لـ«الخمر» هى تطبيق وتوظيف غير إسلامي لحقائق وقوانين زراعته ..

كذلك فإن « كيمياء » تركيب وتصنيع «السماد» الذى يستخدم فى تسميد الأرض الزراعية.. هى حقائق وقوانين تجريبية ، تدخل فى العلم الطبيعى، الذى هو «مشترك إنسانى عام»، لا تتغاير بتغاير

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢٨.

الحضارات والعقائد والفلسفات .. فليست فـــى « كيميـاء السـماد » خصوصيات حضارية .

لكن فلسفة استخدام وتوظيف هذا العلم الطبيعى تختلف باختلاف المقاصد والغايات المحركة للإنسان الذى يوظفه ويطبقه .. وباختلاف نظرة هذا الإنسان للطبيعة - الأرض .. والبيئة - التى يوظف فيها ثمرات هذه « الكيمياء » ..

● فالحفاظ على التوازن بين المكونات الطبيعية والقوى الذاتية والعناصر الخِلْقِيّة للأرض الزراعية وبين طاقاتها فى الإنتاج الزراعى وقدراتها على العطاء .. هو موقف وفلسفة تجعل استخدام « كيمياء السماد » بالقدر الذى يحفظ هذا التوازن ..

أما فلسفة : « قهر الأرض » - النابعة من فلسفة : « قهر الإنسان للطبيعة » - لتعطى الآن أكبر عائد مادى وأوفر محصول ، فى أقصر وقت ، بصرف النظر عن الأذى الذى يصيبها ، عندما يختل توازن تركيبها ، بغلبة « الصناعى » على « الطبيعى » فيها .. وعلى حساب مستقبلها - والذى هو مستقبل الأجيال الآتية لتحيا عليها : - أما هذه الفلسفة - فلسفة قهر الطبيعة ، لتعطى أعلى معدلات الوفرة المادية ، فى اللحظات الآنية -فلسفة : « واغنم من الحاضر لذاته !» - بأى ثمن .. وبصرف النظر عن النتائج ! .. فإنها هى التطبيقات التى تتغاير وتختلف باختلاف الفلسفات والعقائد والحضارات ..

وأيضا.. فإن استزراع الغابات هو السبيل إلى قيام الغابات! ولهذا الاستزراع قوانينه وحقائقه العلمية، العامة والثابتة.. كما أن قطع أشجار

الغابات هو السبيل إلى الحصول على أخشابها.. ولذلك آلياته وقوانينه العامة.. وليس هناك مغايرة فى حقائق وقوانين الاستزراع للغابات.. ولا فى حقائق وقوانين القطع لأشجارها، بتغاير مذاهب الأمم والحضارات والديانات..

لكن إزالة الغابات، وتجريد الأرض منها، لزرع أرضها بالمحاصيل الأخرى.. أوللانتفاع بأخشابها.. أو لإقامة المشروعات غير الزراعية عليها.. أو إبادتها بالتلوث وبالحروب.. دون اعتبار لعامل التوازن البيئى الذى يحافظ وجودها عليه، ويخل به قطعها وإزالتها .. هى فلسفة متميزة فى النظر إلى الطبيعة ، وفى التعامل مع البيئة والمحيط.. إنها الفلسفة التى نشهد اليوم آثار شيوع تطبيقاتها ، فى صور الإخلال بتوازن البيئة ، الأمر الذى يجر على الإنسانية الكوارث والمخاطر الجسام .

إن الفيضانات والسيول التى تعانى منها بلاد عدة فى شبه القارة الهندية ، لها علاقة عضوية بتجريد جبال الهملايا من غاباتها .. وإن الجفاف الناشئ عن تغير مواعيد ومقادير الأمطار التى تسقط على بلاد القارة الأفريقية ، هو ثمرة مرة لتجريد هذه القارة من غاباتها .

ومثل هذه « الأمراض » تحدث وتشيع فى أمريكا اللاتينية – فى حوض الأمزون – وغيرها من المناطق التى وظفت فيها حقائق العلم الطبيعى وقوانينه ، لتحصيل أكبر عائد مادى فى أقصر وقت ، بصرف النظر عن تأثيرات ذلك على توازن البيئة والمناخ ..

وقس على ذلك قضية « كيمياء المبيدات الحشرية » .. تلك التى لا تتغاير ، هى الأخرى ، حقائق علمها وقوانين تجاربها .. لكن فلسفات توظيفها ، وأساليب استخداماتها هى التى تتغاير .. وكذلك ثمرات هذه

التطبيقات .. فإما حفاظ على توازن الحياة والأحياء - كل الحياة وجميع الأحياء - وعلى عناصر الوجود - كل ظواهر الوجود - على النحو الذى يؤدى فيه هذا التوازن وظائفه فى « النفع » وفى الحفاظ على « الوجود » .. وإما خلل يدخل بالإنسانية وبالطبيعة فيما أدخلتهما فيه الفلسفات المادية الحديثة من تطبيقات أثمرت ما نعانيه الآن من مُرَّ الثمرات .

فحقائق العلم الطبيعى لا تتغاير .. وقوانينه لا تختلف ـ بتغاير واختلاف العقائد والفلسفات والحضارات ـ لكن فلسفة تطبيقه ، ومقاصد توظيفه هى التى تختلف وتتغاير باختلاف المعتقدات وبتغاير الحضارات ..

إننا مدعوون - انطلاقا من « إسلامية فلسفة العلم الطبيعى » ـ إلى النظر فى آيات كتاب الوحى التى أشارت إلى الجبال كأوتاد للأرض .. ﴿ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا ﴾[1]..

ونحن مدعوون ، كذلك إلى النظر فى الآيات التى تحدثت عن التوازن والميزان بين كل أنواع الخلق وسائر أصناف المخلوقات .

۞ ۞ ۞

إن التعددية فى الألوهية - ونفى التوحيد - هى - بالدليل العقلى ـ مصدر الفساد والإفساد فى المخلوقات ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله

---

(١) سورة النبأ الآيات : ٦ - ٨.

رب العرش عما يصفون ﴾ [1].. بينما التعددية، وتوازن الفرقاء المختلفين في كل عوالم الموجودات التي خلقها الله متعددة لتتوازن ﴿وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [2]. ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [3]..

بينما هذه التعددية ، في المخلوقات ، والتوازن بين فرقائها ، هي المقتضية للعدل والصلاح في هذه المخلوقات . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ [4].

فالتعددية .. في طبقات الأرض ، وفي مكوناتها .. وقيام التوازن بين هذه الطبقات وهذه المكونات .. والتعددية في طبقات السماء ، وفي مكوناتها .. وقيام التوازن بين هذه الطبقات وهذه المكونات .. هو المعبر عن قيام إسلامية المعرفة في فلسفة علوم الطبيعة التي تدرس ظواهرهما وقواهما وما فيهما من آيات وطاقات ..

وهذا هو معنى « إسلامية فلسفة العلم الطبيعي » .. التي تقف عندها « إسلامية المعرفة » في « العلوم الطبيعية » ولا تتعداها إلى حقائق وقوانين هذه العلوم، التي هي بنت التجربة ، كمصدر أول لاكتشافاتها ولتطورها ..

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٢١، ٢٢.

(٢) سورة الرعد الآية : ٣.

(٣) سورة الذاريات الآية : ٤٩.

(٤) سورة العلق الآيتان : ٦، ٧.

وقس على هذا المثال ما تعنيه « إسلامية المعرفة » فى العلوم والمعارف الطبيعية الأخرى .. فحقائق وقوانين « الوراثة » لا تتغاير بتغاير المعتقدات والحضارات ، لكن توظيفها يختلف باختلاف فلسفة العلم التى يعتنقها أهل التطبيق والتوظيف لهذه الحقائق والقوانين..

ومثل ذلك : الطب .. والطاقة .. والكيمياء .. والفيزياء .. وغيرها من العلوم البحتة الكونية ..

● وإذا نحن نظرنا إلى علاقة الإنسان بظواهر الطبيعة وقواها ، التى سخرها الله ، سبحانه وتعالى ، لهذا الإنسان ، إكراما له وتكريما .. والتى أشارت إلى بعض منها آيات كثيرة فى القرآن الكريم .. ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ [1].. ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [2] .. ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [3] .. ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره

---

(١) سورة إبراهيم الآيتان : ٣٢، ٣٣.

(٢) سورة النحل الآية : ١٢.

(٣) سورة النحل الآية : ١٤.

ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ [1] .. ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ [2] .. ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نَزَّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ [3] .. ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [4] .. ﴿ والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشرِ المحسنين ﴾ [5] ..

---

(١) سورة الحج الآية : ٦٥.

(٢) سورة لقمان الآية : ٢٠.

(٣) سورة الزخرف الآيات : ١٠ – ١٣.

(٤) سورة الجاثية الآيتان : ١٢، ١٣.

(٥) سورة الحج الآيتان : ٣٦، ٣٧.

إذ نظرنا إلى علاقة الإنسان بهذه الظواهر والقوى التى سخرها الله ، سبحانه وتعالى ، له .. فإننا سنجد لهذه العلاقة ، إذ كانت إسلامية ، ضوابط تميزها عن حالها إذا ما تحررت من ضوابط الإسلام ..

فتدمير ظواهر الطبيعة وقواها وكنوزها - بجعل قهر الإنسان للطبيعة هى فلسفة هذه العلاقة . والاخلال بعلاقات توازنها ، هو مما يتنافى مع المعنى الإسلامى لمصطلح التسخير - تسخير الله هذه الظواهر والقوى والكنوز للإنسان ..

فهذا « التسخير » : هو سَوْق وقهر من الله لهذه الظواهر والقوى .. ولكنه ، بالنسبة للإنسان ، يعنى « الارتفاق » ! .. لقد سخرها الله لنا لنرتفق عليها وبها ، فتكون لنا مرفقا نرتفق به .. وإلا ، فألسنا مطالبين بالرفق بالحيوان ، الذى سخره لنا الله! .. وأليس قهر « المرفق » وتدميره مما يتنافى مع حكمة خلقه وتسخيره للإنسان ؟! ..

تلك هى « إسلامية علاقات الإنسان بظواهر الطبيعة وقواها» - الأرض - بطبقاتها .. وبحارها .. وأنهارها .. وغاباتها .. وجبالها - - والسموات - بطبقاتها .. وكواكبها .. ونجومها - وأقطارها .. وما بين السماء والأرض من الهواء ..

فبهذه العلاقة الإسلامية ، يحفظ الإنسان : لا « سلامه » و « سلامته » فقط ، وإنما أيضا يحفظ سلام وسلامة « صفحات كتاب الكون » عندما يحافظ على « توازن واتزان وميزان » هذه « الصفحات » فى هذا « الكتاب » ..

ونحن إذا تأملنا مدلولات مصطلح «الميزان» – وبعض مشتقاته – في المواطن التي جاءت بها في القرآن الكريم، بسياق الحديث عن الطبيعة وقواها ومظاهرها وآياتها، ينكشف أمامنا خطر هذا المعنى لإسلامية علاقة الإنسان بهذه القوى والمظاهر والآيات التي أبدعها الله وسخرها لهذا الإنسان.. ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾ [1] .. فحافظوا في علاقاتكم بهذه الآيات الكونية على الميزان والتقدير الإلهي..

﴿ **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾ [2] .. ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ [3].. فكما أننا مطالبون دينا بالحفاظ على « آيات كتاب الوحي » ، فنحن مطالبون ، دينا كذلك ، بالحفاظ على « توازن وميزان » « آيات كتاب الكون والوجود » ..

ومن منا لا يرى هذه الحقيقة ، حقيقة دعوة القرآن إلى « إسلامية العلاقة بين الإنسان وبين قوى الطبيعة وآيات الله في « كتاب الكون » .. يراها مجسدة إذا هو تدبر الآيات الأولى من الرحمن : ﴿**الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر**

---

(١) سورة الحجر الآيات : ١٩ – ٢٢.

(٢) سورة الشورى الآية : ١٧.

(٣) سورة الحديد الآية : ٢٥.

بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * رب المشرقين ورب المغربين * فبأى آلاء ربكما تكذبان * مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأى آلاء ربكما تكذبان* وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام * فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[1]..

[صدق الله العظيم] .

فهذه الآيات والآلاء ، فى « كتاب الكون » التى عرضت آيات « كتاب الوحى » لعلاقات توازنها واتزانها .. مطلوب من الإنسان أن يحافظ على هذا التوازن ، عندما يرافق هذه الآيات ، ويرتفق بهذه النعم ، فيقيم السلام الإنسانى مع آيات الوجود ، ويحقق السلامة له ولآيات هذا الوجود ..

إذن .. ..

وبعد هذا التعريف والضبط للمصطلح – « إسلامية المعرفة » ..

وبعد الإشارات الموجزة لأمثلة شاهدة على ما تعنيه هذه الإسلامية للمعرفة – فى العلوم الإنسانية والاجتماعية .. وفى العلوم الطبيعية .. وفى علاقات الإنسان بظواهر وآيات « كتاب الوجود » ..

---

(١) سورة الرحمن الآيات : ١ – ٢٥.

يستبين لنا أن جوهر القضية .. وحقيقة الخلاف بين « إسلامية المعرفة » وبين « لا إسلاميتها » هو : الاعتراف بوجود علاقة بين « مصدر الوحى » وبين « مصدر الوجود » - كمصدرين للمعرفة الإنسانية؟ - أو نفى وجود هذه العلاقة..

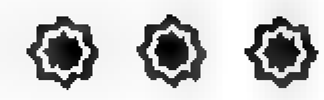
وبتعبير آخر: هل هناك سبيل آخر، غير «الحواس» و « تجاربها» - هو «سبيل الوحى» - لإدراك وتصور وضبط معارف الإنسان فى الوجود - الطبيعي والإنسانى ؟ - أم أن « الحواس» و « تجاربها » هى مصدر « المعرفة الحقة » الوحيد؛ فى هذه العلوم. وما عدا ثمراتها، من «المعارف»، هو «ميتافيزيقا » و «خيال» ؟؟!..

وبصياغة أخرى للقضية : لقد أنزل الله - سبحانه وتعالى - على محمد بن عبد الله ، ﷺ ، وحيه بالقرآن الكريم .. فكان «موضوعا» للعلوم «الشرعية» فى حضارتنا الإسلامية .. ثم ولدت وتبلورت ونمت للمسلمين علومهم «المدنية .. البشرية .. الحضارية».. فهل كان «للوحى» وعلومه علاقات بعلوم «الحضارة المدنية»، وتأثيرات فيها، صبغتها - بدرجات متفاوتة - وضبطتها - على أنحاء مختلفة - بصبغة الوحى وضوابط الشرع الإلهى؟ .. أم أن العلاقة منفكة ، والصلات مقطوعة بين بناء «الإيمان الدينى» و « بناء التمدن الحضارى»؟؟ ..

إن القائلين بـ«إسلامية المعرفة»،لا يجيبون على هذا السؤال بـ«نعم».. لأنهم لا يفصلون، فى مصادر المعرفة، بين كتابى « الوحى» و«الوجود»..

بينما خصوم « إسلامية المعرفة » يجيبون على هذا السؤال بـ « لا » . لأنهم لا يرون للعلوم الحضارية - بل وحتى للعلوم الدينية - مصدرا سوى «الواقع» الذى تدركه «الحواس».. فلا شىء غير « الواقع » .. ولا سبيل للمعرفة سوى « الحواس »..

تلك هى القضية .. قضية « إسلامية المعرفة » .. فى حقيقتها .. وفى جوهرها..



الفصل الرابع

النموذج القرآنى لإسلامية المعرفة

وكما سبقت إشارتنا، فإن «إسلامية المعرفة» - كمهمة ثقافية ورسالة فكرية - وكمنهج متميز فى مناهج المعرفة الإنسانية - ليست جديدة، جدة هذا الشعار الذى يعبر به عنها الآن.. فلقد عرفتها حضارتنا الإسلامية، واعتمدتها وتبنتها، كبديل إسلامى للمعرفة المادية والحسية -معرفة الدهريين والمشركين - الذين لم يروا للمعرفة مصدرا سوى «الواقع المحسوس»، ولم يتصوروا لهذه المعرفة أدوات وسبلا سوى «الحواس».. اعتمدت حضارتنا هذا المنهج المتميز منذ ظهور الإسلام..

وشاهدنا على هذه الحقيقة.. هو كتاب الإسلام الأول: القرآن الكريم..

وفى اعتقادنا، أن بالإمكان - بل إنه لواجب - استخلاص منهج كامل، مدعم بالشواهد، لإسلامية المعرفة، من القرآن الكريم..

وإذا كان مقام هذا الكتاب لا يسمح بالإطالة فى عرض هذا النموذج القرآنى لمنهج إسلامية المعرفة، فإن بعضا من الإشارات لعدد من الآيات القرآنية التى عرضت لهذه القضية كافية لإقامة هذا الدليل، ولبيان مذهب القرآن فى هذا الموضوع..

فنحن عندما نتأمل قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾**[1].

نجد القرآن الكريم يحدثنا عن أن مثل الذين لا يرون للمعرفة سبلا غير «الحواس»، ولا لمصادرها مصدرا غير «الواقع المحسوس» - «كتاب الوجود» - هو كمثل الذين لا يرون في «القلب» غير «اللحمة الصنوبرية الشكل، المستقرة في التجويف الأيسر من الصدر» - وهذا هو التعريف «الحسي» لـ «القلب المادي»!.. فليس هناك - عند هؤلاء - للبصر والإدراك سبيل سوى «العين» - «الحاسة».

أما «المنهج الإيماني»، الذي يرى للمعرفة مصدرا ثانيا، غير «الوجود» - هو «الوحي» - ويرى في العوالم «عالما للغيب» - وليس فقط «عالم الشهادة» - ولسبل المعرفة أدوات أخرى، مع الحواس.. أما هذا «المنهج الإيماني»، فإنه يرى في «القلب» ما هو أكثر من «اللحمة الصنوبرية الشكل».. إنه يرى فيه، أيضا: «أداة التفكير والتعقل» و «اللطيفة الربانية» التي لها بالقلب الجسماني تعلق.. وهي حقيقة الإنسان - التي يسميها الفلاسفة: النفس الناطقة!.. كما عرفه الإسلاميون، الذين فقهوا معنى حديث القرآن عن «عقل القلوب»، و «فقه القلوب»، و «الختم على القلوب».

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٦.

ونحن عندما نتأمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الم. غُلِبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سَيَغْلِبُون. في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم. وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[1].

عندما نتأمل هذه الآيات ندرك «بالحواس» وحقائق «الوجود» واقع الروم الذين غلبهم الفرس، في أدنى مكان على سطح الكرة الأرضية، على شاطئ البحر الميت.

لكننا ندرك أيضا، ما هو فوق ذلك «الوجود» «المحسوس».. ندرك «بنبأ الغيب» في «كتاب الوحى» أن الروم - هؤلاء الذين غُلبوا - سَيَغْلِبُون الفرسَ - في بضع سنين.. وهذا هو النبأ - غير المحسوس - الذى غدا، بعد بضع سنين من نزول هذه الآيات، «محسوسا» في كتاب «الوجود».

فالوقوف عند سبل وثمرات الطريق الأول - الحسى - فى العلم والمعرفة فقط، يقف بصاحبه عند «ظاهر الحياة الدنيا».. عند معطيات «الوجود» وحدها.. عند عالم «الشهادة» - الدنيوى - وحده..

بينما الصدور فى المعرفة من المصدرين - «الوحى».. و«الوجود» - كليهما، يضيف معارف لا يفصح عنها «كتاب الوجود» بمفرده،

(١) سورة الروم: الآيات ١ - ٧.

ولا تدركها «الحواس» وحدها - كما ينفي الغفلة الإنسانية عن «الغيب» - الآخرة - الذى تفرد به وانفرد «الوحى» - نبأ السماء العظيم!..

● وإذا نحن تأملنا قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون. وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون. وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾**[1].

إذا نحن تأملنا هذه الآيات، وجدنا نموذج ذلك الذى:

عبد الدنيا وأهواءها.. فألغى ما وراء «المادة والواقع المحسوس».. ووقف بعلمه دون الإلهى، الآتى بواسطة «الوحى»، أى وقف به فى إطار العلم الدنيوى وحده..

وحال بين سمعه وقلبه وبصره وبين تجاوز الواقع المحسوس..

فإذا جاءته آيات الله، غير المادية، وبراهينه، التى لا تقف فى البرهنة عند الحواس وحدها، ظل منصرفا عنها، مستمسكا بالمحسوس وحده، كمصدر وحيد للمعرفة، وبالحواس فقط، كسبل وحيدة للإدراك، ولذلك طلب أن نأتى له بالموتى من آبائه ليرى

---

(١) سورة الجاثية: الآيات ٢٣ - ٢٥.

منهم ويسمع - بالبصر والسمع الحسيين - نبأ البعث وخبر النشور!.. فهو يريد أن يعرف «بالحواس» معارف «العالم غير المحسوس».

فمعرفة هؤلاء: حسية - دهرية - لا دينية - غير إسلامية - لا ترقى إلى «العلم» - الذى هو إدراك الشىء على ما هو به - وإنما مبلغها أن تقف عند «الظن» - الذى لا يغنى من الحق شيئا، فى بعض الأحيان.. ولا يغنى من الحق كل شىء، فى أحيان أخرى..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال: أنّى يُحْيِى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير﴾**[1].

عندما نتدبر هذه الآيات نعلم أن هذا الذى مر على القرية الخاوية على عروشها، لم يدرك إلا «ما تحسه الحواس».. فلم ير من هذه القرية إلا «الواقع المادى المحسوس»، والآنى.. ولم يتصور إمكان عمل «دليل: قدرة الذى بدأ الخلق على أن يعيده مرة أخرى»..

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

فأقام له الله سبحانه وتعالى، البرهان «المحسوس» من جنس الذى وقفت عنده مداركه! . فآمن وقال: أعلم أن الله على كل شىء قدير ..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: **﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم* الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم﴾**[1].

عندما نتدبر هذه الآيات نراها تعرض لحال ذلك الذى لم يستدل بالمصنوع المادى البديع على وجود الصانع المبدع، المفارق للمادة.. والذى غفل عن إعمال «دليل: قدرة الذى بدأ الخلق على أن يعيده» والإعادة – حتى فى المحسوس – أيسر من الاختراع إبتداء.. فوقفت به مداركه عند «ما تحسه الحواس» من «الواقع المحسوس» ، فلم ير مما بعد الموت سوى الأجساد التى تحولت عظاما رميما.. ولو أدرك معنى ودلالة التحولات الدائمة فى المخلوقات ومنها تحول الشجر الأخضر – الحى – إلى وقود – ميت – لأدرك قدرة القادر على إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى والحياة والموت ليسا محسوسًا تدركهما الحواس..

---

(١) سورة يس: الآيات ٧٧ – ٨١.

ولكنه وقف، فـى مصـادر المعرفـة وأدواتـها، عنـد «المحسـوس» و«الحواس»، لا يتعداهما .

● وعندمـا نتفكـر فـى قـول الله سـبحانه وتعـالى: ﴿**انظـر كيـف ضربوا لك الأمثال فضلوا فـلا يسـتطيعون سبيلا. وقـالوا أئـذا كنـا عظاما ورفاتـا أئنـا لمبعوثـون خلقـا جديـدًا قـل: كونـوا حجـارة أو حديدا. أو خلقا مما يكبر في صدوركم، فسيقولون من يعيدنـا قـل: الذى فطركم أول مرة، فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هــو قل عسى أن يكون قريبا!**﴾[1].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿**ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقـالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثـون خلقـا جديـدا أو لم يـروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهـم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا**﴾[2].

عندما نتفكر فى هذه الآيات، نجد كيف أن الذيـن لم يشـهدوا - بالحواس - خلق أنفسهم ﴿**مـا أشـهدتـهم خلـق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدًا**﴾[3].. هؤلاء الذين لم يشـهدوا، بـالحواس خلــق أنفســهم ينكـرون مـالا يســتطيعون أن يشهدوه، بحواسهم.من البعـث والنشـور.. إنـهم لم يصدقـوا بإمكـان

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ٤٨ - ٥١.

(٢) سورة الإسراء: الآيتان ٩٨ - ٩٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٥١.

إعادتهم بعد الموت، لأنهم لم يدركوا ولم يتصوروا معرفة غير التى يحصلونها بالحواس..

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون* ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون* هيهات هيهات لما توعدون* إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين* إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين﴾[1].

عندما نتدبر هذه الآيات نرى كيف أفضى المنهج «المادى - الدهرى» بأصحابه إلى الإصرار على الكفر الصريح..

لقد أغلظ الترف مداركهم فلم يدركوا سوى ظاهر مارأت عيونهم، فكذبوا رسولهم عندما لم يدركوا فيه آيات صدق النبوة والرسالة.. ووقفت بهم حواسهم عند إدراك ما هو محسوس وحده، فلم يدركوا منه غير ما ترى الحواس من أنه بشر يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون!.. وكذبوا بالبعث عندما لم يستخدموا فى تحصيل معارفه وإمكانه «دليل: قدرة الذى خلق إبتداء على الإعادة مرة أخرى».. فلم تَعْدُ حواسهم من حال ما بعد الموت الأجساد التى تحولت وتتحول إلى تراب وعظام..

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٣٣ - ٣٨.

● وعندما نتدبر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون * وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون * وهو الذى يُحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار، أفلا تعقلون * بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين**﴾[1].

عندما نتدبر هذه الآيات البينات، نرى:

- كيف أشارت إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما خلق لهم من أدوات المعرفة ما هى أكثر من الحواس.. فلقد خلق لهم «الأفئدة» التى تفقه وتعقل.. والتى هى بمثابة اللب والجوهر من الإنسان..

وخلق لهم من أدوات المعرفة أيضا، الحواس.. مثل «السمع والأبصار».

- ثم حدثتهم الآيات القرآنية - آيات «كتاب الوحى» عن ما خلق الله سبحانه وتعالى من آيات «كتاب الكون»: خَلْقُهم فى الأرض وبَثُّهم فى أنحائها.. وحشرهم إلى خالقهم يوم الدين.. والإحياء.. والإماتة.. واختلاف الليل والنهار.. وتعاقبهما..

- لكنهم لما لم يستخدموا من أدوات المعرفة سوى الأدوات الحسية، قصرت بهم معرفتهم عن إدراك مالا يُدرك بالحواس.. لقد عطلوا الأفئدة، والأدوات والسبل التى تدرك ما وراء «المادة»

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٧٨ - ٨٣.

و «الواقع».. فوقفت معارفهم عند الواقع المحسوس لا تتعداه.. ومن هنا كان قولهم بما قال به «الأولون»، الذين أنكروا البعث، عندما لم يروا فى الإنسان بعد الموت غير «التراب والعظام».

ولما لم يستخدموا غير حواسهم.. ولم يدركوا غير المحسوس.. وأهملوا المصدر الآخر من مصدرى المعرفة - «كتاب الوحى» - ونبأ السماء - والأدلة السمعية - حكموا على معارف هذا المصدر الذى أهملوه بأنها: (أساطير الأولين).

لقد قالوا ما يقوله أحفادهم - الوضعيون - المحدثون: إن المعرفة الحقة هى ما تدركه الحواس، بالتجربة، من معارف «الواقع» وعلومه.. وما عداها فهى ميتافيزيقا وخيالات..

● وأخيرا.. وليس آخرا.. فنحن عندما نتفكر فى قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿وإذا رأوا آية يستسخرون * وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون﴾[1].

عندما نتفكر فى هذه الآيات، نرى كيف عرض القرآن لنقض منهج المعرفة المادية الحسية، ذلك الذى وقف بمصادر المعرفة عند «الواقع المحسوس»، وبأدواتها عند «الحواس».. ذلك المنهج الذى جعل أصحابه لا يدركون من الآيات ما وراء الذى تدركه الحواس، فهم يبالغون فى السخرية من هذه الآيات غير المحسوسة.. حتى لقد

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٤ - ١٧.

حسبوها – لإهمالهم أدوات إدراكها – مجرد سحر خادع للحواس!.. وكيف أيضا، لم يروا فيما بعد الموت إلا ما تدركه الحواس من «واقع» تحول الأجساد إلى تراب وعظام!..

هكذا.. وعلى هذا النحو وأمثاله، عرض القرآن الكريم لكثير من الأمثال التى ضربها شواهد على قصور «المعرفة الحسية» وحدها عن أن تدرك ما يجب أن يدركه الإنسان.. وعجزها عن أن تتصور حقائق «عالم الغيب» فتؤمن به.. أو أن تحيط بما فى «كتاب الوحى» ونبأ السماء من حقائق لا تدركها الحواس وحدها..

عرض القرآن لهذه الأمثال، إقامة لمعالم المنهج المتكامل فى المعرفة.. ذلك الذى يزامل بين «كتاب الوحى» و «كتاب الوجود»، مصدرين للمعرفة الإنسانية.. ويعتمد كل سبل الإدراك والتصور، تحصيلا للمعارف والعلوم، على اختلاف مصادرها.

فهو المنهج الذى يقيم العلاقة بين «الوحى» و «الوجود»، بين «الشرعى» و «المدنى»، منهج «إسلامية المعرفة»

لقد كان القرآن الكريم – وهو كتاب المسلمين الأول – والذى خرجت حضارتهم، بل وأمتهم من بين دفتيه! كان ولا يزال المصدر الأول لصياغة هذا المنهج الإسلامى المتميز فى المعرفة..

● فهو يطلب منا أن ندرك ونتدبر آيات «كتاب الوحى» المقروء.. ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[1].. والتدبر هنا لا يدركه الإنسان بمجرد الحواس.. فلا بصر القارئ ولا سمع السامع

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

بمحقق لهذا التدبر المطلوب.. وإنما هو القلب إذا أزيلت من على أبوابه الأقفال!.. ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾[1].. وهنا أيضا يكون «اللب» - القلب - العقل - أداة التدبر والتذكر فى آيات هذا الكتاب الكريم.

● وهو - القرآن الكريم - يطلب منا كذلك النظر والتفكر فى آيات «كتاب الكون»، المنظور.. ﴿أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة، إن الله على كل شىء قدير﴾[2].. ﴿إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحى، ذلكم الله فأنّى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[3]..

﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا

---

(١) سورة ص: الآية ٢٩.
(٢) سورة العنكبوت: الآيتان ١٩، ٢٠.
(٣) سورة الأنعام: ٩٥ - ٩٩.

عذاب النار﴾[1].. ﴿أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾[2]. ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾[3].

● بل ويعلمنا القرآن الكريم أن كلا من هذين المصدرين للمعرفة - يعلمنا أن كليهما «تنزيل» إلهى.. وإرادة إلهية.. وتدبير إلهى..

فإذا كان القرآن الكريم - «كتاب الوحى» - هو البلاغ الإلهى.. وإذا كانت السنة النبوية، الثابتة الصحيحة، هى البيان النبوى لهذا البلاغ الإلهى.. فنحن قد عرفنا وتلقينا هذا المصدر للمعرفة من النبوة والرسالة المعصومة..

على حين نحن نتلقى علوم الكون والإنسان بواسطة «الحكمة».. التى هى - وفق التعريف النبوى لها - : «الإصابة فى غير النبوة»[4] - ووفق المعنى اللغوى لها - : «معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»[5]..

فنحن نتلقى من الرسول ﷺ «كتاب الوحى».. ونستخلص «بالحكمة» علوم الكون.. والقرآن يعلمنا أن كلا منهما - «الكتاب»

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١.

(٢) سورة الروم: الآية ٨.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) «والحكمة: الإصابة فى غير النبوة» - رواه البخارى..

(٥) ابن منظور (لسان العرب) مطبعة دار المعارف - القاهرة.

و «الحكمة» - من عند الله، مصدران للمعرفة الإنسانية، وجناحان لمنهج واحد فى استخلاص واستنباط وإدراك وتصور المعارف والعلوم.. ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[1].. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾[2].

بل إن اعتبار «كتاب الوحى» - مع «كتاب الوجود» - مصدرا للمعرفة.. لا تقف ثمراته، فقط، عند إضافة «معارف عالم الغيب» إلى «معارف عالم الشهادة» - التى نستمدها من «كتاب الوجود» - وإنما يضيف هذا الموقف إلى المعارف الإنسانية، عن «عالم الشهادة» إضافات كثيرة وعظيمة مصدرها «كتاب الوحى» أيضا!.. فكتاب الوحى، الذى انفرد بنبأ عالم الغيب، قد عرضت آياته للكثير من «السنن» و «القوانين» الحاكمة والهادية للإنسان الناظر فى كتاب الوجود..

وإذا كانت «السنن الخارقة للعادة» - وهى خارقة «للعادة - المعتادة».. وليست خارقة للقوانين المعقولة؟! - قد اختص الله سبحانه وتعالى بها الذين اصطفاهم من الأنبياء والرسل!.. إقامة للحجة، وتمييزا للحق عن الباطل.. فإن «السنن الجارية» هى «القوانين» التى أودعها الله، سبحانه وتعالى فى الوجود الطبيعى

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣١.

والإنساني، ودعا أهل العلم إلى اكتشافها وإلى إعمالهـا، عندما أودع في «كتاب الوحي» النماذج والأمثال لها وعليها.. فكل أهل المعرفة مدعوون إلى تأملها، وإلى اتخاذها «سبلا إلهية - شرعية» للمعارف «المدنية» في عالمي الطبيعة والإنسان..

وإذا كانت إشارات قد سبقت إلى بعض من هذه «السنن» التي عرض لها القرآن الكريم في ظواهر الطبيعة.. وفي التوازن بينها.. فإن إشارات إلى بعض من هذه «السنن» الإلهية في الاجتماع الإنساني، كفيلة باستكمال صورة المعرفة القرآنية في عالم الشهادة، وكتاب الوجود..

● فمن القرآن الكريم نتعلم سنة الاقتران الدائم بين «الدين» والرسالات الإلهية، وبين «الحضارة» التي تمثل طور الاستقرار للإنسان.. الأمر الذي يكشف لنا عن البعد الحضاري للدين والتدين.. ففي «القرية» - مكان القرار والاستقرار - تتوافر إمكانات البناء والتراكم في المعارف النظرية، التي تتجسد تطبيقاتها في «التمدن المدني» - وهما جناحا الحضارة - على النحو الذي لا يتأتى في «البادية»، بسبب «الترحال»!..

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٢.

فالرسول الخاتم، بعث بالكتاب الخالد في أم القرى.. وكانت هجرته إلى ثانية القرى.. ولقد مثلت الهجرة في عهد النبوة، إنجازا عظيما من إنجازات «التحضر»، نقل «البدو» إلى «الحضر»، واستبدال «الحضارة بالبداوة».. حتى لقد اعتبرت العودة إلى «البادية» ردة عن هذه «الحضارة» التي أنجزها الإسلام[1]..

وكذلك كانت هذه «السنة» – سنة اقتران «الدين» بـ «الحاضرة» – والبعد الحضاري – عبر تاريخ كل الرسالات ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[2]..

فهي «سنة» من «سنن الاجتماعي الديني» نتعلمها من القرآن الكريم.

● ومن القرآن الكريم نتعلم «سنة الارتباط – ارتباط المقدمة بالنتيجة – بين الظلم والترف والفساد والبغي وبين التدهور والهلاك للاجتماع الإنساني والحضارات»..

﴿وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا، أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون. وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين. وما كان

---

(١) في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم والنسائي: «أرتددت على عقبيك؟ تعربت؟!».

(٢) سورة القصص: الآية ٥٩.

ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا، وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون﴾[1].

﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[2].

﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾[3]، ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير﴾[4].

فإفضاء الترف والظلم والفساد والبغى إلى انهيار وهلاك الحضارات، سنة وقانون من سنن وقوانين الاجتماع الإنسانى، نتعلمها من القرآن الكريم..

● ومن القرآن الكريم نعرف سنة ارتباط الانفراد - الأثرة والاستئثار - مطلق الانفراد - كمقدمة - بالطغيان - كل ومطلق الطغيان..

﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾[5].

فكل استئثار بلون أو ميدان من ميادين «السلطان» - المالى.. أو الإدارى.. أو السياسى.. أو فى الرعاية الأسرية - هو مقدمة مفضية حتما إلى الطغيان..

---

(1) سورة القصص: الآيات ٥٧ - ٥٩.
(2) سورة الإسراء: الآية ١٦.
(3) سورة هود: الآيتان ١١٦، ١١٧.
(4) سورة الشورى: الآية ٢٧.
(5) سورة العلق: الآيتان ٦، ٧.

● وكما يعلمنا القرآن الكريم أن وحدانية الخالق هي علة إنتفاء الفساد عن التدبير والرعاية الإلهية في عوالم المخلوقات، الأرضية والسماوية ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[1].. نتعلم منه كذلك سنة وقانون «التعددية» - والتوازن - في جميع عوالم وأمم المخلوقات..

فغير تعددية وتوازن ظواهر الخلق في عالم الطبيعة.. هناك التعددية والتوازن في عوالم الاجتماع الإنساني..

تعددية وتوازن: الألسن والألوان والقوميات والحضارات، في إطار وحدة الإنسانية ووحدة الخلق..

وتعددية الشرائع الإلهية، بتعدد أمم الرسالات، في إطار الدين الإلهي الواحد وتعددية وتوازن: مذاهب «الفروع» في إطار وحدة «الأصول» - في العقيدة والشريعة..

وتعددية وتوازن: الأفراد.. والطبقات في إطار كل أمة من الأمم.. على نحو ما تتعدد الأعضاء في الجسد الواحد..

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾[2].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٣.

﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾[1].

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[2].

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأَمْلأَنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[3].

● وإذا كان «التوازن» هو الذى يحفظ على الفرقاء المتعددين «الوحدة»، ويحول بينهم وبين «الصراع» الذى ينفى «التعددية»، عندما ينفى طرف بقية الأطراف، بصرعهم وإخلاء «الظاهرة - الساحة» منهم..

وإذا كان «الخلل» - نقيض «التوازن» - يؤدى إلى ذات النتيجة: استبداد طرف بكل المقدرات والثمرات، دون بقية الأطراف، على النحو الذى يلغى «التعددية»، عمليا.. فإن القرآن الكريم يعلمنا «سنة» و «حكم»: أن «**الدفع**» - الذى هو حراك

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) سورة هود: الآيتان ١١٨، ١١٩.

اجتماعى - وليس «الصراع» الاجتماعى - هو سنة الله وحكمه وسبيله لإعادة «التوازن» إلى مقامه إذا ما حل محله «الخلل» فى ظاهرة من ظواهر الاجتماع.. فـ «الدفع»: تحويل لمواقع الفرقاء، فى إطار «التعددية»، وليس نفيا من فريق لغيره من الفرقاء..

﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾[1].

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز﴾[2].

﴿إدفع بالتى هى أحسن السيئة، نحن أعلم بما يصفون﴾[3].

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾[4].

تلك إشارات إلى بعض من سنن الاجتماع الإنسانى، التى نجد كتاب الوحى - القرآن الكريم - قد مثل فيها مصدرا للمعرفة فى

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥١.
(٢) سورة الحج: الآيتان ٣٩، ٤٠.
(٣) سورة المؤمنون: الآية ٩٦.
(٤) سورة فصلت: الآية ٣٤.

عالم الشهادة.. تقوم دليلا على تجاوزه لسبل الإنباء عن عالم الغيب، الذى لا تدركه تجارب الحواس..

۞ ۞ ۞

وعلى درب «البلاغ الإلهى» - القرآن الكريم - سار «البيان النبوى» - سنة الرسول ﷺ..

فكما مثل «الوحى» مصدرا لمعرفة العديد من «سنن» الاجتماع الإنسانى، ومعارف عالم الشهادة - كذلك كانت السنة النبوية - التي هى «البيان النبوى للوحى الإلهى» - فمنها، هى الأخرى نستلهم المعرفة بالعديد من «سنن» هذا الاجتماع..

● فاقتران «العصبية».. والشوكة.. والمنعة القومية - بالنسبة للرسول - أى رسول - اقترانها بالنجاح الذى تحرزه رسالته فى مواجهة الخصوم المنكرين.. هى سنة من سنن «الاجتماع الدينى» تنسحب إلى سنن «الاجتماع السياسى- نتعلمها من سنة رسول الله ﷺ»..

ففى التفسير النبوى والبيان الرسالى لقول الله سبحانه وتعالى عن نوح وقومه: ﴿لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد﴾[1]..

يقول الرسول ﷺ «قد كان (نوح) يأوى إلى ركن شديد (الملائكة الذين حضروه) - لكنه - (أى نوح) عَنَى عشيرته، فما بعث الله،

---

(١) سورة هود: الآية ٨٠.

عز وجل بعده نبيا إلا بعثه فى ذروة قومه.. وإلا فى منعة من قومه!»[1].

ودور «العصبية الهاشمية» - فى الحقبة المكية من الدعوة الإسلامية - دورها فى الانتصار للدعوة، بحماية النبى، حتى وكثير من أهل تلك العصبية على الشرك - مثل أبى طالب.. والعباس بن عبد المطلب.. وحلفاء المؤمنين إبان المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية فى «شعب بنى هاشم» - شاهد على هذه السنة من سنن الله فى الدعوات والرسالات..

● واقتران إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - وهى فريضة اجتماعية - كفائية - تعنى عموم المشاركة الإيجابية من المسلم فى شئون الاجتماع الإسلامى - اقتران إقامة هذه الفريضة بتقدم الاجتماع وإزدهاره.. واقتران إهمالها والنكوص عنها بتدهور الاجتماع وهلاك نظامه وسيادة المظالم والفوضى فيه.. سنة من سنن الله فى هذا الاجتماع، يحدثنا عنها البيان النبوى، فى حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه[2] على الحق أطرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم»**[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) أى تحملونه على الحق قسرا.

(٣) رواه الترمذى وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد.

فمقاومة الجور والظلم هي التي تحفظ على الاجتماع الإنساني المعنى الحق للحياة.. «إذا رأيتم أمتى تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم! فقد تُوُدِّع منهم »[1].

● وهذه السنة وثيقة الصلة - بل عضويتها - بسنة أخرى، نتعلمها من أحاديث رسول الله ﷺ التى تشير إلى «قانون تعاقب العدل والجور، والخير والشر فى الاجتماع الإنسانى»، وصلة هذا التعاقب بإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

يتحدث الرسول ﷺ عن سنة وقانون تعاقب العدل والجور على الاجتماع الإنسانى فيقول: «لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره! ثم يأتى الله - تبارك وتعالى - بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»[2].

وكذلك الحال مع الخير والشر.. فحذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - يسأل رسول الله ﷺ «يا رسول الله، أيكون بعد الخير الذى أعطينا شر، كما كان قبله؟!

قال: نعم!

فسأله حذيفة: فبمن نعتصم؟!

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الإمام أحمد.

قال: بالسيف»[1].

● وهذه السنن وثيقة الصلة بسنة أخرى نتعلمها من حديث رسول الله ﷺ، الذى يجعل القوة، قوة الاجتماع الإنسانى، قرين الفداء والجهاد والاستشهاد، حتى وإن قل تعداد الأمة.. بينما يقترن الوهن والذل بالجبن عن الفداء والجهاد والاستشهاد، حتى وإن كثرت الأعداد؟!.. فرسول الله ﷺ يتحدث عن هذه السنة فى الحديث الذى دار بينه وبين صحابته.. والذى بدأه فقال لهم:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها»

- فقالوا: يا رسول الله، أمن قلّة بنا يومئذ؟!

- قال: أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل! ينتزع المهابة من قلوب عدوكم، ويجعل فى قلوبكم الوهن!

- فقالوا: وما الوهن؟!.

- قال: حب الحياة، وكراهية الموت»[2].

● وإلى جانب من هذه الحقيقة تشير الأحاديث النبوية التى تتحدث عن سنة اقتران الجهاد بالعزة، وارتباط النكوص عنه بالإذلال.. فالركون إلى «سلم» لا يحميه «جهاد» سبيل إلى ضياع

---

(١) رواه أبو داود والإمام أحمد.

(٢) رواه أبو داود والإمام أحمد.

«المسلم» الحقيقي من الاجتماع الإنساني؟!.. «إذا تبايعتم بالنسيئة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[1].

«فالحياة المدنية» تحميها من الذل «الروح الجهادية»، والاقتران قائم بين الدين - والجهاد ذروة سنامه![2] - وبين عزة هذه الحياة. كما أن الذل قرين «الدعة» التي لا يحميها «الجهاد»..

وإلى هذه السنة، يشير الحديث النبوى الذى يقول فيه ﷺ: «لا يزال أهل الغرب (أى أهل الشدة والجلد) - ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[3].

وذلك لأن ختم النبوة والرسالة قد جعل استمرارية هذه الأمة إلى يوم الدين الحقيقة المترتبة على خلود الإسلام حتى يوم الدين!.. فكانت سنة القيام الدائم لفريق من هذه الأمة على إعلاء أمر الله.. «لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»[4].

وهذه «الجماعة - الأمة» هى التى عصمها الله من الاجتماع والإجماع على الضلال.. «إن أمتى لا تجتمع على ضلالة»[5].

---

(١) رواه أبو داود والإمام أحمد.

(٢) من حديث رسول الله الذى يرويه معاذ بن جبل - أخرجه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه ابن ماجة.

فحفظ الدين - الذى وعد الله به - **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[1] - يقتضى دوام إقامته.. أى دوام أمته.. وذلك لا يتأتى دون دوام الجهاد مع أعداء الإسلام والمسلمين.. **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر أو الشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله»**[2].

هكذا.. ومن خلال هذه الإشارات إلى عدد من «السنن» و «القوانين»، التى جاءت فى القرآن الكريم.. وفى الحديث النبوى الشريف.. رأينا كيف كان «كتاب الوحى» - بلاغه القرآنى.. وبيانه النبوى مصدرا للمعرفة، فى عالم الشهادة، والاجتماع الإنسانى.. إلى جانب كونه المصدر لمعارف الإنسان عن عالم الغيب الذى لا تستقل بإدراكه العقول، ولا تخضع معارفه للحس والتجريب.

وأخيرا.. فمن منا لا يتأمل قول الله سبحانه وتعالى: **﴿ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا﴾**[3].. ولا يرى ويدرك - على وجه اليقين - كيف جعل القرآن الكريم سبل العلم والمعرفة متعدية للسبل الحسية.. فليس «السمع»

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والإمام أحمد.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

و«البصر» – الحواس – وحدها – هى سبل المعرفـة.. وإنما الفؤاد – مع الحواس – (كل أولئك كان عنه) عن العلم والمعرفة (مسئولا)..

تلك هى إسلامية المعرفـة.. المنـهج القرآنـى فـى المعرفـة.. وعلـى هـذا النحو واجه به القرآن الكريم – وبيانـه النبـوى – المنـهج الحسـى فـى المعرفة، ذلك الذى كان سائدا فى دوائر المشركين والدهريين..

وعلى هذا النحو قام «كتاب الوحى» – فـى هـذا المنـهج – مصـدرا للمعرفة فى عالم الغيب والشـهادة جميعا.. فزاملت معارفة، وكشفت سننه عن كثير من السنن الجارية فى آيات «كتاب الوجود». سـيان منـها مـا كان خاصا بعلوم الطبيعة التجريبية، أو بظواهر وعلوم الاجتماع الإنسانى.

فهو تميز.. وهى إضافات.. تحققها إسلامية المعرفة فى هذه الميادين.

✿ ✿ ✿

الفصل الخامس

وبعد الفتوحات الإسلامية

ولم يكد ينتهى القرن الهجرى الأول، حتى كانت الفتوحات الإسلامية قد وصلت بحدود الدولة الإسلامية ما بين الأندلس والصين.. وأصبحت كل الديانات، السماوية والوضعية، وكل الملل والنحل، وجميع المؤسسات اللاهوتية والمدارس الفكرية والفلسفية، قائمة ونشطة فى دولة الإسلام.. فالفتح قد أقام الدولة، لكن المسلمين ظلوا أقلية عددية فى رعية هذه الدولة لعدة قرون[1].. إذ ﴿لا إكراه فى الدين﴾[2].. وإذا كان للفتح أن يقيم «الدولة»، فليس له من سبيل إلى إقامة الإيمان «بالدين»، لأن الإيمان: تصديق قلبى، يبلغ مرتبة اليقين.. والإكراه قد يثمر «نفاقا»، لكنه لا يثمر «إيمانا» بحال من الأحوال.

وفى خضم التدافع الفكرى الذى شاع وازدهر بين الإسلام وبين الديانات والنحل والفلسفات غير الإسلامية، تخلقت للحضارة الإسلامية

---

(١) انظر فى الانتشار التدريجى للإسلام: هارى. وهازارد (أطلس التاريخ الإسلامى) ص ٥، ٦ ترجمة إبراهيم زكى خورشيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م. ود. حسين مؤنس (أطلس تاريخ الإسلام) ص ٣٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م. وأرنولد. سير توماس. (الدعوة إلى الإسلام). ص ٩٨، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٩، ١٥٣ ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م وآدم متز (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) المجلد الأول ص ٧٥، ٨٤، ١٠٥، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

علوم ومذاهب كانت بعض أدواتها فى الحوار الفكرى والتدافع المذهبى مع هذه الديانات والفلسفات.. تخلقت العقلانية الإسلامية، التى أعملت العقل فى النقل، وحكمت العقل بالنقل.. فكانت نموذجا للمعرفة الإسلامية التى أرسى القرآن قواعدها - وتخلق علم آداب البحث والمناظرة، الذى جعل حتى من المساجد، أحيانا، ميادين تدافع فكرى بين علماء الإسلام وبين أحبار وعلماء الديانات والفلسفات الأخرى.. وكان ذلك امتدادا وتطويرًا لمنهج النبوة ولدور مسجد المدينة المنورة، على عهد الرسول ﷺ..

ولقد واجه المسلمون، ضمن ما واجهوا، خلال هذا التدافع الفكرى، مذاهب المعرفة غير الإسلامية، تلك التى افتقدت توازن معرفتنا الإسلامية.. واجهوا:

● العقلانية اليونانية، التى لم تعرف الوحى والنقل، فلم تعترف بهما.. فقامت معرفتها على ساق واحدة، هى البرهان العقلى.. حتى لقد اقتربت كثيرا من نموذج المعرفة الحسية.

● والعرفان الغنوصى الباطنى، الذى اعتمد «الحدس» و «الذوق»، فأهمل «الواقع» وغض من شأن «العقل» و «النقل» جميعا..

● وواجهوا «المعرفة الحسية» لمذاهب الديانات الوضعية، التى كانت منتشرة فى البلاد الآسيوية التى دخلت فى دولة الإسلام أو اتصل أهلها بالإسلام والمسلمين..

وأمام هذه «المقالات» غير الإسلامية، وفى مواجهتها، وفى خضم التدافع الفكرى معها، شهدت حضارتنا فن التأليف فى (مقالات

الإسلاميين).. ورأينا، ونحن نراجع عناوين مؤلفات سلفنا فى تلك القرون تلك الثروة العظيمة من المؤلفات التى تخصصت فى الرد على «مقالات» أهل تلك الديانات والمذاهب والنحل والفلسفات..

وعلى سبيل المثال:

فالذين أرّخوا لقائد المعتزلة: أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ هـ - ١٣١ هـ / ٦٩٩ م-٧٤٨ م) يقولون إنه لم يبلغ الثلاثين من عمره حتى كان قد فرغ من الرد على كل المخالفين!.. ومن عناوين الكتب التى ألفها: (كتاب الألف مسألة). وجميعها فى الرد على مذهب «المانوية» الفارسية.

ومما تذكره كتب هذا الفن.. فن (مقالات الإسلاميين) من وقائع التدافع الفكرى بين «إسلامية المعرفة»، التى بلورها الإسلام، وبين مذهب الديانات الوضعية - غير السماوية - فى «المعرفة الحسية»، تلك الحوارات التى دارت بين علماء الإسلام وبين علماء فرقة «السُّمَنِيَّة» - وهى مذهب من مذاهب الديانة الوضعية الهندية.. ينكر أهله الوحى والنبوة والرسالة.. ويقولون: «لا طريق للعلم سوى الحس.»[1].

كان «السمنية» يرون أن المعرفة والعلم هما ثمرة للواقع المحسوس وحده.. ويرون الحواس الخمسة وحدها سبل المعرفة الحقة.. وما عدا ذلك خيال- وبتعبيراتهم فى ذلك العصر: «مجهول»! - أى غير «معلوم».. أى ليس من المعارف والعلوم، التى يصدق عليها هذا الاصطلاح.

---

(١) التهانوى (كشاف اصطلاحات الفنون) - طبعة الهند سنة ١٨٩٢ م.

ولقد دارت بين بعض علماء «السمنية» وبين واحد من علماء المسلمين. وزعيم لإحدى الفرق الإسلامية – وهو الجهم بن صفوان (١٢٨ هـ/ ٧٤٥ م) – مناظرة حول هذه القضية. قضية «حسية المعرفة».. عجز فيها الجهم عن تقديم مذهب الإسلام في المعرفة للسمنيين.. فلما بعث إلى واصل بن عطاء بمقالة السمنية، لفت واصل نظره إلى مذهب الإسلام في المعرفة.. مصادرها.. ووسائل تحصيلها.. فعاود الجهم محاورة السمنيين، الذين انتهى بهم المطاف إلى اعتناق الإسلام على يد واصل بن عطاء.

أما النص الذي يذكر هذه الواقعة، ذات الدلالة الهامة – وهو الذي بقي لنا ضمن ما بقي من أقدم كتاب بلغنا أنه تحت عنوان (مقالات الإسلاميين) –لأبي القاسم البلخي (٣١٩ هـ/ ٩٣١ م)– أما هذا النص فإنه يقول: «ذكر أبو الحسن بن فرزويه: أن قوما من السمنية أتوا جهم بن صفوان فقالوا له:

– هل يخرج المعروف عن المشاعر الخمسة؟

– فقال: لا.

– قالوا: فحدثنا عن معبودك الذي تعبده، أشيء وجدته في هذه المشاعر؟!.

– قال: لا.

– قالوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها. فقد دخل في المجهول؟!.

فسكت جهم..».

هنا، فى هذا الجزء من هذا النص، نرى مذهب السمنية فى «المعرفة الحسية» التى لا مصدر لها سوى «الواقع المحسوس»، ولا سبيل إليها إلا «بالحواس الخمسة».. فهم يرون أن «المعروف» - أى المعرفة - «لا تخرج عن المشاعر الخمسة» - أى الحواس الخمسة!.. ولما كان الله سبحانه وتعالى، لا تدركه - أى لا تجده - هذه المشاعر الخمسة.. فلا سبيل إلى معرفته.. لقد خرج من «المعروف» ودخل - حسب مذهبهم - «فى المجهول»..

على هذا النحو كان مذهب الديانات الوضعية فى المعرفة الحسية.. فكيف واجهها المسلمون؟.. وكيف ردت على هذه المعرفة الحسية مقالات الإسلاميين؟! لنستكمل قراءة النص.. فهو يقول:

«إن الجهم بن صفوان - الذى عجز عن الرد على السمنية - كتب، بوقائع هذه المناظرة، إلى واصل بن عطاء. فكتب إليه واصل:

إن المعروف لا يخرج عن المشاعر الخمسة وعن الدليل.. فارجع إليهم الآن، وقل لهم: هل تفرقون بين الحى والميت؟! وبين العاقل والمجنون؟!. فإنهم يعترفون بذلك، وإنه يعرف بالدليل لا بغيره».

هنا فى هذا الجزء، من هذا النص، يقدم واصل بن عطاء الإضافة الإسلامية فى نظرية المعرفة.. فهو لا ينكر المعرفة الحسية، ولكنه لا يقتصر عليها، وإنما يضيف إلى أدواتها - المشاعر - الحواس الخمسة - يضيف «الدليل».. والدليل ليس حاسة مادية، وبه يدرك الإنسان المعارف والعلوم غير المادية، والتى لا تخضع لتجارب الحس والحواس..

فالدليل - لغة - هو المرشد والمنبه - واصطلاحا - هو الذى يلزم من العلم به العلم بشيء آخر.. هو الذى يقود الذهن إلى التسليم بحقيقة قضية كانت موضع شك، من قبل، وقد يكون: مجرد أمارة، أو ظاهرة معينة، أو شهادة شاهد، أو ضربا من الاستدلال المنطقى[1]..

فالدليل، ليس فقط الحاسة التي تدرك المحسوس، بل قد يكون: لازم العلم بالمحسوس.. والإدراك به ليس مباشرا، كحال الإدراك بالحواس.. ومثاله: أن يلزم من العلم بالمصنوع البديع - وهو محسوس - العلم بوجود الصانع المبدع - وهو معلوم غير محسوس، لا تدركه الحواس.

لقد أضاف واصل بن عطاء «الدليل» إلى «الحواس الخمسة»، فعبر عن الرفض الإسلامى للمعرفة الحسية، التى تقف بالمعروف عند «الواقع المحسوس» وبأدوات الإدراك عند الحواس الخمسة..

ونحن عندما نتأمل الأمثلة التى طلب واصل من الجهم بن صفوان أن يتحدى بها السمنية نجد نماذج المعرفة الإسلامية، التى واجه بها الإسلاميون خصومهم فى هذا الميدان..

لقد طلب منه أن يقول لهم: «هل تفرقون بين الحى والميت؟ وبين العاقل والمجنون؟؟» وإذا كان جوابهم - ولابد أن يكون - بـ «نعم».. لزمتهم الحجة، لأن هذه التفرقة لا سبيل إليها إلا بـ «الدليل». «فالحياة»: ليست مادة، تُدْرَك بالحواس.. «والموت»: ليس مادة..

---

(١) انظر: الجرجانى (التعريفات).. و (المعجم الفلسفى) وضع: مجمع اللغة العربية. القاهرة.

وكذلك «العقل» و «الجنون».. جميعها ليست مادة محسوسة تدركها الحواس.

وواصل بن عطاء، يصدر هنا عن الحقيقة القرآنية، التى ضل عنها العلم الغربى، الذى أثمرته موجة الفلسفة المادية والوضعية.. فظن أن «العقل» هو مادة «الدماغ»، وأن الفكر والإدراك والوعى ما هو إلا انعكاس لهذه المادة.. واصل بن عطاء يصدر عن الحقيقة القرآنية التى رأت «العقل»: فعل التعقل، وليس عضوا من أعضاء جسم الإنسان المادية.. والتى هى، لذلك، تحدثت عنه باعتباره «اللب» - الجوهر لإنسانية الإنسان - تارة.. ثم باعتباره «القلب»، لا بمعنى: «اللحمة الصنوبرية الشكل، المستقرة فى التجويف الأيسر من الصدر» وإنما بمعنى أن «القلب» - الجوهر - اللب - النهى - الذى يعقل ويفقه.. والذى - أيضا - يُخْتَم ويُطْبَع عليه بالغشاوات والأقفال، هو: «لطيفة ربانية، لها بالقلب الجسمانى تعلق.. وهى: حقيقة الإنسان. التى يسميها الفلاسفة: النفس الناطقة!»[1].

لقد صدر واصل بن عطاء، فى حديثه عن «المعروف غير المادى» - من مثل الحياة.. والموت.. والعقل.. والجنون.. والذى يُدْرَك بـ «الدليل» - وليس بالحواس الخمسة.. لقد صدر عن الحقيقة القرآنية.. وعن النمط الإسلامى فى المعرفة، ذلك الذى لا يقف بالمعروف عند «المحسوس»، ولا بأدوات المعرفة عند «الحواس».

---

(١) الجرجانى: (التعريفات).

أما خاتمة هذا النص التراثي، الذي رواه أبو القاسم البلخي، في كتابه (مقالات الإسلاميين) عن أبي الحسن بن فرزويه.. فإنها تقول:

إن جواب واصل بن عطاء لما جاء إلى الجهم بن صفوان «رجع به على السمنية، فقالوا له:

- ليس هذا من كلامك؟! فمن أين لك؟!.

- قال: كتب به إليّ رجل من العلماء، بالبصرة، يقال له: واصل.

فخرجوا إليه - (إلى واصل) - وكلموه، فأجابوه إلى الإسلام»[1].

ذلك مثال - مجرد مثال - لمنهج «إسلامية المعرفة» الذي واجه به الإسلاميون، بعد الفتوحات، مذاهب «المعرفة الحسية»، التي كانت سائدة في دوائر الفكر لدى أهل الديانات الوضعية، التي تنكر «مصدر الوحي» وتقف بالمعرفة وأدواتها ومصادرها عند المحسوس المُدْرَك بالحواس..

۞ ۞ ۞

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت الترجمة لعلوم اليونان بـ«علوم الصنعة» - أي علوم التمدن المدني - التي هي «مشترك إنساني عام».. وذلك منذ مشروع الأمير الأموي العالم خالد بن يزيد (٩٠ هـ ٧٠٨ م).. فإنها قد عرفت، في مجرى انفتاحها على هذه العلوم اليونانية، إنسانيات، بل وإلهيات اليونان.. ومنذ القرن الهجري الثالث أصبحت الفلسفة اليونانية معروضة على العقل العربي.. فبدءًا من

---

(١) البلخي، والقاضي عبد الجبار، والحاكم الجشمي (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) ص ٢٢٦. تحقيق: فؤاد سيد. طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م.

الكندى، يعقوب بن اسحاق (٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م) أصبح أرسطو (٣٨٤ ق. م -- ٣٢٢ ق. م) حاضرا فى المكتبة العربية الإسلامية.. فأصبح لـ «المعلم الأول» -- اليونانى -- «المعلم الثانى» -- العربى -- الذى كتب -- ضمن ما كتب: (إلهيات أرسطو). والذى قال عنه ابن جلجل، أبو داود سليمان ابن حسان الأندلسى: «.. ولم يكن فى الإسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو أرسطاليس.. » فلقد اجتهد لإثبات «التوحيد» و«النبوة» بمنهج اليونان فى المعرفة.. مذهب «أصحاب المنطق فى سلوك مراتب البرهان..»[1].. فكان أن انفتح فى ساحة الفكر الإسلامى باب جديد، وواسع، لمقالات غير الإسلاميين.

ولقد كان طبيعيا أن تستنفر هذه «المقالات» لغير الإسلاميين، «مقالات الإسلاميين».. فشهدت الحياة الفكرية الإسلامية، غير (مقالات الإسلاميين) للبلخى -- الذى سبقت الإشارة إليه -- كتاب الأشعرى، أبوالحسن (٢٦٠ هـ -- ٣٢٤ هـ/ ٨٧٤ م -- ٩٧٦ م): الذى حمل ذات العنوان.. وكتاب العامرى: أبو الحسن محمد بن يوسف (٣٨١ هـ / ٩٩٢ م): (الإعلام بمناقب الإسلام)، والذى يعد أول أثر فكرى عثرنا عليه فى مقارنة الأديان الإسلام -- واليهودية -- والنصرانية -- والزرادشتية -- والوثنية -- والصابئة -- وهو الكتاب الذى أجاب فيه على سؤال:. «لماذا أقبل الإسلام وأرفض غيره من الأديان؟؟..».

ثم شهد هذا التدافع الفكرى بين المنهج الإسلامى فى المعرفة ومناهج المعرفة لدى الملل والنحل غير الإسلامية، تلك الأعمال الفكرية البارزة فى

---

(١) انظر: ابن جلجل (طبقات الأطباء والحكماء) ص ٧٣، ٧٤ تحقيق: فؤاد سيد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

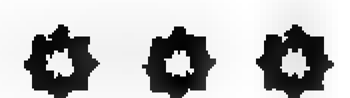
المقارنة والموازنة والمفاضلة بين الأديان (الفِصَل فى الملل والأهواء والنِّحل) لابن حزم الأندلسى (٣٨٤ هـ - ٤٥٦ هـ/ ٩٩٤ م - ١٠٦٤ م) و (الملل والنحل) و (مصارعات الفلاسفة) للشهرستانى، محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ هـ - ٥٤٨ هـ / ١٠٨٦ م - ١١٥٣ م)، والبناء الفكرى الذى أقامه حجة الإسلام، أبو حامد الغزالى (٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ م - ١١١١ م) لتمييز المنهج الإسلامي عن كل من المنهج اليونانى والمنهج الغنوصى الباطنى - (تهافت الفلاسفة) و (مقاصد الفلاسفة) و (فضائح الباطنية) و (ميزان العمل) و (القسطاس المستقيم) و (معيار العلم) و (إحياء علوم الدين).. إلخ. فلما جاء شيخ الإسلام، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ هـ - ٧٢٨ هـ/ ١٢٦٣ م - ١٣٢٨ م) كان جهاده على جبهة تميز المنهج الإسلامي فى المعرفة الوجه الآخر المكمل لجهاده بالسيف ضد أعداء دولة الإسلام وأمته وحضارته. فكما ذاد، بالسيف، عن ديار الإسلام.. ذاد، بالقلم، عن عقيدته، وعن منهاج هذه العقيدة فى تحصيل المعارف والعلوم، فكان من عطائه على هذه الجبهة: (الجمع بين النقل والعقل) - درء تعارض صريح المعقول مع صحيح المنقول، و (نقض المنطق) - الذى حاول فيه بناء منطق إسلامى، لعقيدة التوحيد، مرتبط بالعربية - لسان الإسلام - بديل لمنطق أرسطو - الخاص بلغة اليونان، ووثنيتها - وكذلك: (الرد على ابن عربى والصوفية) و (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم).. إلخ.

وفى سياق هذا الجهد الفكرى.. الذى استهدف تميز منهاج المعرفة الإسلامى عن منهاج المعرفة الحسية، شهدت المكتبة الإسلامية العديد

والعديد من الكتابات.. والتي يبرز فيها كتاب ابن الوزير اليمني، محمد ابن إبراهيم (٧٧٥ هـ - ٨٤٠ هـ / ١٣٧٣ م - ١٤٣٦ م): (ترجيح أساليب القرآن على قوانين المبتدعة واليونان).. ذلك الذى أحيا فيه منهج المعرفة القرآني.. منهج إسلامية المعرفة، فى مواجهة ومقارنة ونقد مناهج المعرفة الحسية، غير الإسلامية..

وهكذا كانت المواجهة بين إسلامية المعرفة وبين مناهج المعرفة الحسية، والغنوصية.. بدءا بالمواجهة القرآنية لمناهج الشرك والدهرية فى المعرفة.. والتى واصل الفكر الإسلامى مسيرتها عندما تصدى لمناهج المعرفة الحسية والغنوصية، تلك التى سادت فى دوائر الفكر لأهل الديانات الوضعية التى تدافعت مع مقولاتها «مقالات الإسلاميين».

لقد ظل «البديل الإسلامى»، فى المعرفة، مرفوعة راياته، فى هذا التدافع الفكرى عبر تلك القرون.



الفصل السادس ..

والبديل للوضعية الغربية الحديثة

فلما حدث ودخلت حضارتنا الإسلامية فى طور التراجع والجمود - لأسباب ليس هذا هو مقام الحديث فيها[1] .. فذبل فيها الخلق والإبداع والتجديد ، وغرق العقل الإسلامى فى بحار الجمود والتقليد .. تصادف زمن ذلك التراجع مع الإحياء والنهضة للحضارة الغربية في أوربا ..

ولقد قامت النهضة الغربية الحديثة ، فى مناهج المعرفة ونظرياتها ، كرد فعل عنيف ومناقض لتلك المناهج التى سادت فى تلك الحضارة ، إبان عصورها الوسطى والمظلمة ..

كانت الكنيسة الكاثوليكية ، إبان هيمنتها على الحضارة الغربية - سواء فى ظل « القيصرية - البابوية » - التى هيمنت فيها الكنيسة على السلطة الزمنية - أو فى ظل «البابوية - القيصرية » - عندما أصبح « البابوات » « قياصرة » أيضا ! .. كانت هذه الكنيسة قد جعلت « اللاهوت » هو مصدر المعرفة الوحيد .. فقدست المعرفة وثبتتها - جمدتها - عندما جعلت لها قدسية الدين وثباته .. وبعزلها «الواقع» عن أن يكون المصدر الثانى للمعرفة ، منعت « الشرعية » عن ثمرات

---

(١) انظر كتابنا « الطريق إلى اليقظة الإسلامية » - تاريخ التراجع الحضارى وأسبابه ومظاهره - ص ١٨ - ١٣٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م .

معرفة هذا «الواقع» . ومن هنا كان « التحريم » للمكتشفات الجديدة . و « الحرمان الديني » لمن يطلبون « المعرفة » خارج « اللاهوت ».

لقد جعلت الكنيسة من «المعرفة» شأنا سماويا خالصا. لا مكان فيه «للواقع» وأدوات إدراكه وتصوره .. فجاءت النهضة الغربية الحديثة، كرد فعل عنيف ومضاد لهذا الموقف الكنسي، لتجعل من « الواقع المحسوس» المصدر الوحيد للمعرفة ، ولتجعل من التجربة الحسية - المذاهب التجريبية بأنواعها- السبل الوحيدة لتحصيل المعارف والعلوم.

لقد فتحت هذه النهضة الغربية الحديثة صفحة جديدة لمنهج المعرفة الحسية ، الذى عرفه تاريخ الفكر البشرى لدى أصحاب الديانات الوضعية - والذى أشرنا إلى « السُّمَنِيَّة » نموذجا له - بل لقد تصاعد رد الفعل هذا بتيارات الوضعية الغربية إلى حد الزعم بأنّ « الدين : وضع بشرى»! .. وليس « وضعا إلهيا » ، وذلك عندما أنكرت هذه الوضعية « الوحي» كمصدر من مصادر المعرفة الحقيقية ، واعتبرته - فى أحسن الحالات ، وأخف وألطف التعبيرات : ميتافيزيقا ، وخيالات، إن جاز أن يكون تصورات لمرحلة من مراحل طفولة وسذاجة العقل الإنسانى ، فغير جائز أن يكون « معرفة » بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح .

لقد قال الوضعيون الغربيون : « إن العقل الإنسانى قد مر بحالات ثلاث : حالة لا هوتية ، وحالة ميتافيزيقية ، وحالة واقعية » .. هى تلك التى غدا « الواقع » فيها المصدر الوحيد للمعرفة الحقة - فالحق بنظرهم ، هو « ثمرة التجربة » وحدها[1].

---

(١) انظر [القاموس الفلسفى] - مادة المذهب الوضعى - تأليف مراد وهبة ، ويوسف كرم، ويوسف شلاله.

وكما قال « السُّمَنِّية » - القدماء : إن ما عدا « المعروف بالحواس » هو « مجهول » .. قال أبو المذهب الوضعى أوجست كونت [١٧٩٨م - ١٨٥٧م] : إن ما عدا « الواقع » المحسوس هو « وهم » من الأوهام ! .. والفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية المحسوسة ، وما بينها من علاقات أو قوانين ؛ وإن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية .. فالتجربة هي مصدر المعرفة الحقة الوحيد - ومن ثم فإنه يجب العدول عن كل بحث في العلل والغايات وفي المبادئ الأولية .. فكل المعرفة مستمدة من الحس أو التجربة المباشرة ، وليس من الفطرة أو المصدر العقلي أو النظري أو الاستنباطي[1]..
أما « مصدر الوحى » ، فلقد اعتبرته الوضعية : إفرازا بشريا تلاءم مع مرحلة الطفولة التى مر بها العقل البشري ؛ قبل أن يصل إلى « الوضعية - التجريبية » ، عبر « الميتافيزيقا »..

بل لقد شابهت هذه الوضعية الغربية الحديثة ، في منهجها هذا في المعرفة ، أسلافها القدماء ، من أبناء الديانات الشرقية الوضعية - مثل « السُّمَنِّية » التى أشرنا إليها - عندما سارت على ذات الدرب ، « حذو النعل بالنعل » ! .. فنادت بـ « الدين الوضعي » .. فكتب أوجست كونت كتابه [تعاليم الدين الوضعي] سنة ١٨٥٢م..

وفي هذا « الدين الوضعي » ، جعل هذا « المتنبي الوضعي الجديد .» :

---

(١) المرجع السابق : وانظر كذلك مادة « تجريبى » فى « القاموس الفلسفى » - وضع: مجمع اللغة العربية - القاهرة.

● العبادة للكائن الأعظم - الذى رمز له بصورة الأنثى - فى معابد تحتوى على تماثيل نصفية لمن رآهم قد أحسنوا إلى الإنسانية....

● وجعل لهذا الدين الوضعى «تقويما وضعيا»، سميت شهوره بأسماء: موسى، وأرشميدس، وفردريك الثانى .. وغيرهم من أمثالهم ..

● أما أعياد هذا الدين، فهى احتفالات بالعظماء - ولقد جعل أوجست كونت فى هؤلاء العظماء الذين تقام الأعياد احتفالا بهم: أصدقاءه، الذين ساندوه فى محاولته الفاشلة لاحتلال منصب الأستاذية بمدرسة الفنون التطبيقية..

● أما روحانيو هذا الدين الوضعى، فهم العلماء التجريبيون .. بدلا من رجال اللاهوت »[1]

فهى إذن « الردة العنيفة » و« رد الفعل العنيف » على الموقف الكنسى والمذهب اللاهوتى فى مصادر المعرفة وسبل تحصيلها .. لقد جعلت الكنيسة المعرفة شأنا سماويا خالصا، لا علاقة له « بالواقع ». فجاءت الوضعية لتجعلها شأنا أرضيا « واقعيا » خالصا لا علاقة له بالوحى ولا بنبأ السماء..

والأمر الذى يؤكد هذه الحقيقة هو ما ذهب إليه أبو الوضعية الغربية، و« متنبئ دينها الوضعى » الجديد، فى تقسيمه لمراحل تطور المعارف والعلوم .. فلقد رآها مراحل ثلاث:

---

(١) انظر [الموسوعة الفلسفية المختصرة] ص ٢٦٧ - إشراف ومراجعة: د. زكى نجيب محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣م.

١ – المرحلة اللاهوتية.. وهى مرحلة الحكم الدينى .. التقليدية ، التى اتسقت فيها السلطة بين قوة الملوك الدنيوية وقوة الكهنة الروحانية ..

٢ – والمرحلة الميتافيزيقية .. التى حدث فيها نوع من الفوضى ، تعرضت فيها كل من السلطة الدنيوية والسلطة الروحانية للهجوم ..

٣ – والمرحلة الوضعية .. التى يكون فيها رجال العلم التجريبى قوة روحية جديدة.. وتسود فيها المعرفة الوضعية .. ويصبح الدين وضعيا أيضا!.. وتصبح كل العلوم، حتى الإنسانية منها، طبيعية، فى مناهجها، وفى درجة الحياد والموضوعية والتعميم لقوانينها ومقولاتها– حتى لقد أطلق على علم الاجتماع –الذى أسسه–: «الفيزيقا الاجتماعية»[1].. وقال، فيما قال: «إننا مادمنا نفكر بشكل وضعى فى مادة علم الفلك أو الفزياء ، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة فى مادة السياسة أو الدين ، فالمنهج الوضعى الذى نجح فى علوم الطبيعة يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير »[2] ..

لأنه قد رأى كل أبعاد التفكير وكل ألوان المعارف ، وكافة العلوم صادرة عن مصدر واحد للمعرفة ، هو « الواقع المحسوس » .. فكل المعارف « تجريبية» ، ومن ثم يمكن التعبير عنها « بلغة الفيزيقا »[3]..

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧.

(٢) محمد أمزيان [منهج البحث الاجتماعى بين الوضعية والمعيارية] ص ٤٦، ٤٧ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى سنة ١٩٩٢م.

(٣) [الموسوعة الفلسفية المختصرة] ص ٤١٧.

هكذا بدأت وتبلورت « الوضعية » الغربية - بمدارسها المختلفة - وانقساماتها التى تمايزت فى الفروع والتفاصيل والتخصصات : الوضعية .. والوضعية المنطقية .. والتجريبية .. والسلوكية .. والمادية - بمذاهبها وفروعها .. إلخ .. إلخ..

فكما جَرَّم اللاهوت الكنسى الغربى « المعرفة الواقعية » لجاليليو [١٥٦٤ - ١٦٤٢م] .. جَرَّمت الوضعية الغربية « المعرفة الإيمانية » ، معتبرة إياها : إفرازا بشريا طفوليا ، تجاوزه العقل البشرى عندما تجاوزت الإنسانية مرحلة طفولتها..

وهكذا عاد الخلل إلى مصادر المعرفة ، وإلى أدواتها ، عندما قامت على ساق واحدة، هى «كتاب الوجود» ، معرضة عن ساقها الأخرى ، « كتاب الوحى » .. عاد إليها هذا الخلل القديم ، من جديد .

لقد غدت الوضعية: « دين الفكر الغربى » ، الذى استبدل « بدين الايمان السماوى » .. ثم اتخذت الأشكال المتعددة فى الميادين المختلفة ..

● فهى قد جعلت « الوعى » نشاطا ماديا ، هو انعكاس « للدماغ » ، الذى حسبته « العقل » .. أى أنها قد جعلت « العقل » و « التعقل » مادة .. حتى لا يكون هناك شىء فى الإدراك والمعرفة غير الحس والمحسوس والحواس .. وقال هكسلى توماس . هـ [١٨٢٥م - ١٨٩٥م] : « يبدو أن الوعى متصل بآليات الجسم كنتيجة ثانوية لعمل الجسم ، لا أكثر ، وأن ليس له أى قدرة كانت على تعديل عمل الجسم ، مثلما يلازم صفير البخار حركة القاطرة دونما تأثير على آليتها .. ».. وقال أيضا ، فى سياق الادّعاء بهذه «المادية الميكانيكية»:

« إن الأفكار التى أعبر عنها بالنطق . وأفكارك فيما يتعلق بها إنما هى عبارة عن تغيرات جزئية ..» [1]..

ولقد قادت هذه «المعرفة الحسية» ، التى أنكرت « مادون المحسوس والحواس » ، قادت أصحابها إلى « دهرية جديدة » فى الاعتقاد ! ..

فالدهريون الأول قد قالوا : **﴿ ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾** [2] .. ورأوا فى الموت نهاية كل شيء ، يستوى فى ذلك « الجسم» و«العقل» و«النفس» و«الروح» و«الفكر» و«الإرادة» .. فالناس ــ كما قالوا ــ هم مثل الزرع!.. نراه مختلفا ألوانه، ثم يصير حطاما، لا عودة له، ولا بعث ولانشور!.. لأنه ــكما قال هؤلاء الماديون ــ : « إذا كان التفكير والإرادة نشاطين من أنشطة الدماغ، فسيفنيان بفناء الدماغ. وإذا كان كل جزء من أجزاء الإنسان مادة، فلابد من أن يكون كل جزء منه عرضة للفناء..» [3] ..

وانطلاقا من هذه الفلسفة المادية للعلم الغربى، انطلق داروين (تشارلز) (١٨٠٩م ــ ١٨٨٢م) ففسر ــ فى الداروينية ــ نشأة الحياة تفسيرا ماديا ــ أو إلى هذه النتيجة قادت أبحاثه فريقا من تابعيه ــ فهى ــ الحياة ــ قد نشأت ذاتية بواسطة التفاعلات والتغيرات الجزئية التى اعترت المواد الأولى التى تخلقت منها ــ تماما كما تخلق الوعى ونشأ من مادة الدماغ،

---

(١) روبرت م. أغروس ، جورج ن ، ستانسيو [العلم فى منظوره الجديد] ص ٢٦ ، ٢٥. ترجمة كمال خلايلى. طبعة الكويت . عالم المعرفة سنة ١٩٨٩م.

(٢) سورة الجاثية : الآية ٢٤.

(٣) (العلم فى منظوره الجديد) ص ٢٥.

بالتغيرات الجزئية.. فما قاله هكسلى فى عالم الأفكار، قاله دارون فى عالم الأحياء

وتطبيقا لهذه النزعة المادية ـ فى عالمى الأفكار والأحياء ـ فى الاجتماع والأموال والثروات والاقتصاد قال ماركس (كارل) (١٨١٧م ـ ١٨٨٣م) «إن تطور المجتمعات والاجتماع البشرى إنما هو بتأثير المحرك الأول: الواقع المادى.. والاقتصاد ـ قوى الانتاج، وعلاقات الإنتاج.. فالمعرفة مادية، تعكس «الواقع» فى «الفكر»، وهى قائمة على الممارسة، تبدأ بالإدراكات الحسية للأشياء[1] .. ولا شىء غير «الواقع» المنعكس فى «فكر» الإنسان، بواسطة «مادة الدماغ».. أما « الله» و«الدين» – وكل ماجاء به «كتاب الوحى» ، فهو خيال وخرافة اخترعها المحرومون، تسلية لأنفسهم، أوالخبثاء الأغنياء تخديرا للفقراء».

ولقد تصاعدت الماركسية بهذه «الدهرية» المنكرة «لمصدر الوحى» والمعادية للدين، من مستوى « الخيار ـ الفردى» إلى حيث جعلتها «مهمة ثورية» دعت « الثوار» إلى النضال لتعميمها على الإنسانية ومجتمعاتها، باقتلاع الدين والتدين اقتلاعا من هذه المجتمعات، جاعلة من هذه «المهمة» جزءا لا يتجزأ من «تحريرها» الإنسان من «القيود».

لقد تنوعت مدارس الفكر الغربى ومذاهبه، وتعددت فى إطار نهضته الحديثة العلوم والمعارف والتخصصات.. لكن الوضعية.. والنزعة المادية.. والمذهب الحسى فى المعرفة.. كانت القاسم المشترك الأعظم فى معظم هذه

---

(١) (الموسوعة الفلسفية) ـ مادة المعرفة ـ وضع لجنة من العلماء السوفيت ـ. ترجمة: سمير كرم. طبعة بيروت. سنة ١٩٧٤م.

المدارس والمذاهب والمعارف والتخصصات.. حتى لقد انطبع فكر النهضة الغربية الحديثة بهذا الطابع «الدهرى.. الحسى» إلى حد كبير..

ولقد تزامن ذلك مع تراجع حضارتنا الإسلامية.. ومع الموجة الاستعمارية الغربية الحديثة، التى حملت إلى بلادنا الإسلامية ـ بعد خضوعها لهيمنة هذه الموجة الاستعمارية ـ مع النهب الاقتصادى.. والإلحاق الأمنى والسياسى.. نزعتها هذه فى المعرفة الحسية، والتوجه المادى.. فأعاد تاريخ المواجهات الفكرية سيرته الأولى من جديد.. مع تغير فى مواقع الفرقاء.. فبعد الفتوحات الإسلامية نهض الإسلاميون بمواجهة مذهب المعرفة الحسية ـ الواقف عند المحسوس والحواس- نهضوا بمواجهته بمذهب الإسلام فى المعرفة، فى البلاد التى فتحها المسلمون.. لقد قدموا «البديل الإسلامى» فى المعرفة، كجزء من المشروع الحضارى الإسلامى، الذى انتصر، وغدا ـ لأكثر من عشرة قرون ـ منارة العالمين..

واليوم. وبعد الغزو الغربى لوطن العروبة وعالم الإسلام، منذ نحو قرنين من الزمان، اقتحم الفكر الغربى على العقل المسلم دياره ومعاقله، محاولاً أن يفرض عليه ـ ضمن ما يريد فرضه ـ نموذجه الحضارى الغربى، المؤسس على النزعة المادية والحسية فى المعرفة.. الأمر الذى يجعل من شعار «إسلامية المعرفة» التعبير عن مهمة ثقافية ورسالة فكرية، هى المدخل والسبيل والأداة لبلورة الطور المعاصر لمشروعنا الحضارى الإسلامى، الذى لابد لنا من إحيائه وتجديده، لنواجه به المشروع الغربى..

فالقضية الآن أكبر من مهمة ثقافية.. وأخطر من رسالة فكرية.. وأعظم من «هم أكاديمى» .. إنها جزء من المشروع الحضارى الإسلامى، الذى يمثل بالنسبة ليقظتنا الإسلامية الحديثة.. دليل العمل الذى ينير لهذه اليقظة الطريق.. والرائد الذى لايكذب أهل هذه اليقظة.. وطوق النجاة لأمتنا من هاوية التبعية الفكرية والاستلاب الحضارى».. الذى أقام له «الآخر الحضارى» فى عقر دارنا المؤسسات التى تبث مذاهبه فى المعرفة ومناهجه فى صياغة الواقع وتشكيل الحياة..

تلك هى المهمة التى يطرحها شعار «إسلامية المعرفة» على العقل المسلم، فى المنعطف التاريخى، والظرف الحضارى الذى نعيش فيه..

۞۞۞

الفصل السابع

وقسمة فى مشروعنا الحضارى البديل

ولعل مما يزيد العقل الإسلامي ثقة في خطر هذه القضية ـ قضية: إسلامية المعرفة ـ واطمئنانا إلى توافر إمكانات النجاح فيها ـ غير القياس على انتصار أسلافنا العظام على الوضعية القديمة والدهرية القديمة ـ أن كثيرا من دوائر الفكر الغربى ذاته قد أخذت تفيق من خدر الاطمئنان الذى خدعتها به موجة المعرفة الحسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين..

لقد شهد العلم الغربى، منذ العقود الأولى للقرن العشرين، العديد من الاكتشافات العلمية، التي يعدها المؤرخون له بمثابة «الثورات» التى كشفت عورات افتقار المعرفة الحسية والمادية إلى التوازن، ومن ثم افتقادها لمقومات «الصدق المعرفى».

● ففى الفيزياء، مثلت أبحاث ونظريات ومكتشفات أينشتاين Einstein (١٨٧٩م-١٩٥٥م). وبور Bohr (١٨٨٥م-١٩٦٢م). وهايزنبيرج Heisenberg (١٩٠١م ـ ١٩٧٦م) ثورة كبرى..

● وفى مبحث الأعصاب، مثلت أبحاث ومكتشفات شرنجتون Sherrington (١٨٥٧م ـ ١٩٥٢م) .. وإكلس Eccles من مواليد ١٩٠٣.. وسبرى Sperry (١٨٦٠م ـ ١٩٣٠م).. وبنفيلد Penfield ثورة جديدة..

● وفى علم النفس، مثلت أبحاث ومكتشفات فرانكل Frankl.. وماسلو Maslow وماى May ثورة أخرى..

● وفى علم الكونيـات. كـانت نظريـة «الانفجـار العظيـم»، و«المبـدأ الإنسانى»، فتحا علميا جديدا: مثل مع الثورات العلميـة فـى الفيزيـاء.. والأعصاب.. وعلم النفس الأسس الجديدة لمعرفـة غير حسية - وبمعنى أدق لاتقف على «ساق الحس» وحدهـا.. وبعبارة أهل الاختصاص من علماء الفيزياء، الذين يحللون مغزى هذه الثورات العلمية، ويؤرخون لها: (فإن هذه المكتشفات لم تقلب التصور الحديث - الذى كان سائدا فى العلم الغربى - للإنسان ولمكانته فى العالم فحسب، بل هى تقدم تفسيرا جديدا..).

لقد كان التصور السائد فى دوائـر العلـم الغربـى، إبـان حقبـة الموجـة المادية والحسية فى المعرفـة، هـو «أن لا وجـود إلا للمـادة، وأن الأشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب، وهكـذا يتحتم أن تكـون حريـة الاختيار وهما من الأوهام ما دامت المادة غير قادرة علـى التصـرف الحـر. ولما كانت المادة عاجزة عن أن تخطط أو تهدف إلى أى شىء، فـلا سبيل إلى العثور على حكمة وراء الاشـياء الطبيعيـة - (عـالم الغيـب) - بـل إن العقل ذاته يعتبر نتاجا ثانويا لنشاط الدماغ..

ولقد وصف برتراند رسل Bertrand Rassell (١٨٧٢م - ١٩٧٠م) هذا التصور المادى الذى ساد دوائر المعرفة والعلم الغربـى فقـال: « لأن يكـون الإنسان نتاج أسباب لاتملك العدة اللازمـة لما تحققـه مـن غايـات، ولأن يكون منشؤه ونموه ومخاوفه وصبواته ومعتقداته مجـرد حصيلـة إرتصـاف ذات عرضى، ولأن تعجز أى حماسة مشبوبة أو بطولة، أو أى حـدة فـى التفكير أو الشعور، عن الإبقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القـبر، ولأن

يكون الاندثار هو المصير المحتوم لكل عناء الأجيال. ولكل التفاني، ولكل عبقرية الإنسان المتألقة تألق الشمس في رابعة النهار، كل هذه الأمور إن لم تكن حقا غير قابلة للجدل فإنها مع ذلك تقترب من اليقين إلى حد يستحيل معه على أى فلسفة ترفضه أن يكتب لها البقاء. وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بأمان إلا فى إطار هذه الحقائق وعلى أساس راسخ من القنوط المقيم..»..

نعم .. لقد سادت «دهرية القنوط المقيم!» مما وراء المادة.. فى حقبة النهضة الحديثة للمعرفة الغربية - الحسية - والعلم الغربى - المادى - الذى عمم هذه النظرة على جميع العلوم، المادية منها والإنسانية..

لكن المؤرخين الجدد، للعلم الغربى، الذين رصدوا الثورات المعاصرة فى هذا العلم، يقولون إن ذلك التصور «الدهرى - القانط» قد طويت صفحته بهذه الثورات العلمية المعاصرة وبمعطياتها فى نظرية المعرفة.. وبعبارة عالم الفيزياء هنرى مارجينو Henry Margenau. إن العقيدة الأساسية للمذهب المادى - وهى أن الحقيقة كلها تكمن فى المادة وهذا رأى كان مقبولا بعض القبول فى أواخر القرن الماضى (التاسع عشر) غير أن أمورا كثيرة حدثت فى هذه الأثناء تكذب هذا الرأى..».

وبعبارة عالم الفيزياء فيرنر هايزنبيرج: «إن الفيزياء الذرية المعاصرة قد نأت بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى فى القرن التاسع عشر».

إذن .. فنحن أمام جديد.. وبإزاء تحولات فى مذهب المعرفة الغربية.. تحولات عن النزعة المادية البحتة والحسية الصرفة..

لقد قال الإمام الغزالى قديما: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله».. لقد بدأ جراح الأعصاب «ويلدر بنفيلد» تجاربه على الدماغ،

بهدف إثبات النظرة التى كانت سائدة ـ النظرة المادية ـ «الدماغ يفسر العقل»-لكنه وصل-عبر دراسة ما يربو على ألف حالة- إلى إثبات عكس هذه النظرة المادية.. وصل إلى أن العقل غير الدماغ.. فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف، والقدرة على الحركة. لكنه ليس مقر العقل أو الإرادة.. والعقل، لا الدماغ، هو الذى يراقب ويوجه فى آن معا.. هو الذى يتخذ القرارات وينفذها، مستعينا بمختلف آليات الدماغ»..

لقد وصل بنفيلد إلى هذه الحقائق.. ورتب عليها معطياتها فى نظرية المعرفة.. فكتب فى كتابه (لغز العقل)..

«إنه أقرب إلى المنطق أن نقول: إن العقل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفا عن الجسم».

وأمام هذا الذى قاله .. نتذكر تعريف الإسلاميين للعقل، بكلمات الشريف الجرجانى (٤٧٠هـ - ٨١٦هـ/١٣٤٠م - ١٤١٣م): «هو جوهر مجرد عن المادة فى ذاته، مقارن لها فى فعله.. جوهر روحانى خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الإنسان.. نور فى القلب يعرف الحق والباطل».

ونتذكر، أيضا، تعريفه لـ«القلب» ، الذى يعقل ويفقه ـ كما جاء فى القرآن الكريم ـ والذى يقول عنه : إنه «لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسمانى الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر، تعلق. وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان.. ويسميها الحكيم: النفس الناطقة.. وهى المدرك والعالم من الإنسان، والمخاطب والمطالب والمعاتب..»

إنه التعريف الإسلامى، الذى لم ير الإنسان مجرد مادة تفرز الفكر بالتفاعلات لجزئيات هذه المادة..

ومن هذا المعنى يقترب العلم الغربى المعاصر، بتجارب علمائه على الأعصاب.

بل لقد خطا وَيلدر بنفيلد خطوة أخرى، هامة، عندما قال ـ متعجبا ـ وهو الذى بدأ أبحاثه بهدف دعم النظرة المادية والحسية للمعرفة ـ قال: «. . فياله من أمر مثير، إذن، أن نكتشف أن العالم يستطيع، بدوره، أن يؤمن عن حق بوجود الروح.. و إذا كان العقل والإرادة غير ماديين، فلاشك أن هاتين الملكتين ـ على حد تعبير «أكلس» .. «لاتخضعان بالموت للتحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ كليهما..»[1]..

الله أكبر . . .

إننا بإزاء إيمان «بالروح».. وإيمان بخلودها.. وإيمان بأن تحلل الجسم وفناء المادة ليس نهاية المطاف..

وهنا تضاهى هذه «التجريبية الجديدة» ـ إن جاز التعبير ـ «التجريبية الإسلامية» المؤمنة، فيما انتهت إليه من معطيات.. لكن يبقى «البديل الإسلامى» متميزا.. فهو لا ينطلق، فى المعرفة، فقط من «الواقع.. والحس.. والتجريب»، وإنما ينطلق، أيضا، من «كتاب الوحى» وهو ما يفتقده ويفتقر إليه هؤلاء «التجريبيون الجدد الغربيون» .

لقد اكتشف بنفيلد «أمرا مثيرا»!.. أما العالم المسلم، الذى ينطلق من «كتاب الوحى» و «كتاب الكون»، فإنه يكتشف، بالتجربة، فى «كتاب الكون» : الأسرار التى أودعها صاحب «الوحى» و«خالق

---

(١) العلم فى منظوره الجديد ص٣٩، ٤٢، ٤٣.

الوجود» .. فهو ينطلق من الإيمان الدينى.. ينطلق من «الشرعى» ، لاكتشاف «المدنى ـ الكونى» ، ثم يوظف ثمرات العلم «المدنى ـ الكونى» فى دعم الإيمان «الدينى ـ الشرعى»، ويكون لذلك أكثر خلق الله خشية لله.. ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (1).

فالتطور الذى يحدث فى العلم الغربى المعاصر.. ومعطياته فى نظرية المعرفة.. هو مما يدعم ثقتنا فى «البديل الإسلامى» .. ويزيد من إلحاح هذه القضية على العقل المسلم.. لتنقية علومنا من آثار الموجة المادية للعلم الغربى الحديث.. ولصياغة هذه العلوم وفق منهاج إسلامية المعرفة.. وللإسهام، بعد ذلك فى تزكية وترشيد هذا التوجه الجديد والوليد عند الغربيين..

٭٭٭

إن الإسلام الذى صاغ أمته، عندما صبغ حضارتها بصبغة الله ـ بإقامته العلاقة بين «الشرعى» و «المدنى» فى المعارف والعلوم..

إن هذا الإسلام، الذى صاغ الأمة.. ومنهاجها فى المعرفة، هذه الصياغة الإيمانية المتميزة.. هو الذى صاغ ـ تبعا لذلك، وبسبب ذلك ـ علماء هذه الأمة صياغة متميزة كذلك.

«تجريبيون ـ مؤمنون».. و «روحانيون ـ ماديون»! .. فنجت حياتنا الفكرية والعلمية من ذلك «الفصام النكد» بين «النظر و «التجريب» بين «العمل الذهنى». و«العمل اليدوى».. بين «الشرعى» و«المدنى»..

(1) سورة فاطر الآية ٢٨.

فـالدين : وضـع إلهـي .. يسـوق الإنسـان لعبـادة الله ولعمـران الكون، مستعينا فـي ذلـك كلـه بكتـابي «الوحـي» و«الوجـود». . ومن هنـا :

● كان أبو الوليد بن رشد (٥٢٠هـ - ٥٩٥هـ / ١٢٢٦م - ١١٩٨م) يفزع الناس إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتـواه فـي الطب!.. فـهو الطبيـب المجـرب.. والفقيه الأصولي المتكلم.. الحكيـم!.. إنـه صـاحب (كتاب الكليات) - في الطب - و (بداية المجتهد ونهايـة المقتصد) - في الفقه - و (مناهج الأدلة في عقـائد الملـة) و (فصـل المقـال فيمـا بـين الحكمة والشريعة من الاتصال) - في علم الكلام والتوحيد.

● وكـان ابـن سـينا، أبـو علـي الحسـين بـن عبـد الله (٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ/ ٩٨٠م - ١٠٣٧م) «الشـيخ الرئيـس» فـي «الشـرعي» و«المدني» .. في «الإلهيـات» و «الطبيعيات».. فـي «التصوف» و«النبات والحيوان» و «الهيئة»! فمن آثاره في الطـب (القـانون).. وفـي الحكمـة والإلهيـات (الشـفاء) و(المعـاد) و (أسـرار الحكمـة المشرقية).. وفي التجريب والطبيعة: (النبات والحيوان) و (الهيئـة) و (أسباب الرعد والبرق).. إلخ.

● وكان البغـدادي أبـو منصـور عبـد القـاهر بـن طـاهر (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) - وهو الذي اشتهر بإبداعاته المتميـزة فـي أصـول الديـن - المبرز في الحساب.. وفي الهندسـة!.. حتـى لقـد قـالوا: إنـه كـان يُدَرس في سبعة عشر فنا!.. ومن آثاره: (أصـول الديـن) و (وتفسـير

القرآن) و (معيار النظر) و (التكملة فى الحساب) و (رسالة فى الهندسة).. إلخ.

● وكان الخيام، أبو الفتح عمر بن إبراهيم (٥١٥هـ/ ١١٢١م) اللغوى.. الشاعر.. والفيلسوف.. المؤرخ.. والرياضى.. الفقيه.. والمهندس.. الفلكى!.. ولقد بقيت لنا من آثاره (مقالة فى الجبر والمقابلة) و (شرح ما يشكل من مصادرات أقليدس) و (الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما) و (الرباعيات) و (الخلق والتكليف).. وغيرها من الآثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الإسلامى.فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل أدواتها، ومعرفة علمائها.

● وكان الفخر الرازى، أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م) الإمام فى علوم الدين والدنيا جميعا.. حتى لقد قال مؤرخوه: «إنه كان أوحد زمانه فى: المعقول.. والمنقول.. وعلوم الأوائل».. ومن بين آثاره الكثيرة والجامعة لأقطار المعرفة وتخصصاتها، نجد: «مفاتيح الغيب» - فى تفسير القرآن الكريم و «معالم أصول الدين»، و «لوامع البينات فى شرح أسماء الله الحسنى والصفات» و «الخلق والبعث» فى التوحيد وأصول الدين، و «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين» و«نهاية العقول» و«البيان والبرهان» - فى الفلسفة - و «المباحث المشرقية» - فى التصوف - و «السر المكتوم» - فى الفلك - و «النبوات» - فى النبوة والرسالة - و «النفس» - فى

علم النفس – كما أبدع فى الهندسة «كتاب الهندسة» و «كتاب مصادرات إقليدس».. إلخ.

هكذا تجسّد توازن وتكامل مصادر المعرفة، فى المنهج الإسلامى، وتوازن تكامل أدوات وسبل تحصيلها، فى هذا المنهج.. هكذا تجسّد فى العلم الإسلامى، وفى العقل الإسلامى، وفى تراث علماء الإسلام.. فكان الاشتغال بجميع العلوم، «الشرعى» منها و «المدنى»، و «النظرى» منها و «التجريبى»، عبادة وقربة إلى الله، وامتثالا لأوامره وتكليفاته.. فبالعلوم الشرعية تعرف المقاصد الإلهية فى العمران البشرى، وبالعلوم المدنية يقيم البشر العمران الذى استخلفهم خالقهم لإقامته فى هذا الوجود.. وفيهما معا، وبهما جميعا يكتشفون آيات الله، سبحانه وتعالى، فى الأنفس والآفاق.. فيظل العلم، بهذا المنهج فى المعرفة، الباب المفتوح دائما وأبدا لاكتشاف الحقيقة فى عالم الشهادة، ودعم قواعد الإيمان بالله وعالم الغيب!.. وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿**سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[1].

وإذا كانت هذه هى سمات وثمرات التكامل فى منهج «إسلامية المعرفة».. وفى المعارف والعلوم التى أثمرها هذا المنهج.. وفى العلماء الذين التزموه فى إدراك وتحصيل هذه المعارف والعلوم.. فلقد كان طبيعيا أن تكون الصورة سلبية وشائهة على جبهة الحضارة التى اختل فيها ميزان هذا المنهج.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

ومن منا لا يدرك ذلك دون كثير عناء إذا هو قارن بين هذا التكامل الذى أشرنا إليه على الجبهة الإسلامية، وبين واقع النهضة العلمية الغربية، ذات المنهج الحسى والمادى فى المعرفة.

● لقد كان التقدم العلمى، فى علوم الدنيا، نقضا وإنكارا للوحى والدين.. حتى لقد قادت الاكتشافات العلمية هناك أصحابها إلى «تأليه الإنسان».. فصاح بعضهم تلك الصيحة المنكرة - المعبرة عن هذا الخلل - فقال: لقد مات الله - تعالى الله عن ما صاحوا به علوا كبيرا! -.

● وكان الكثير من ثمرات هذا المنهج المختل - القائم على ساق المعرفة الحسية وحدها - وخاصة فى العلوم الإجتماعية والإنسانية - ثمرات معتلة.. ففى الوقت الذى زعموا لها حياد ودقة وموضوعية العلوم الطبيعية والتجريبية، رأينا اكتساح التطور لها كما تكتسح الصحة والعافية العلل والأمراض!.. لقد أثمر هذا المنهج الأعوج مذاهب وفلسفات ونظريات، كانت أقرب إلى «الأمراض الفكرية» وإلى «الفجر - الكاذب»، الذى سرعان ما يتوارى، حتى وإن بهر بعض الأبصار.

وأثمر ألوانا أخرى من المذاهب والفلسفات، كانت تعبيرا خاصا عن أمراض أو ملابسات غربية خاصة.. ومع ذلك، فلقد زعموا لها «العلمية» و «الموضوعية» و «الحيادية» .. فذهبوا يفرضونها على البشرية جمعاء.

وبسبب من الطابع المادى والحسى لمناهج المعرفة فى هذه النهضة الغربية الحديثة، فلقد تصور الغرب أن هيمنته على الشعوب المستضعفة، وتدميره للبنية الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمعاتها، ومسخه ونسخه

وتشويهه لموروثها ومعرفتها.. ظن ذلك لها «رسالة حضارية» يدفع الرجل الأبيض ضريبة نشرها فى العالمين.

وبسبب من هذا الطابع الحسى والمادى، أيضا، كانت التطبيقات الغربية لثمرات عبقريته فى العلم الطبيعى.. كانت تطبيقاتها فى دمار البيئة وتلويثها والاخلال بتوازنها.. وكما عد قهره للأمم الأخرى «رسالة حضارية» .. فلقد اعتبر العدوان على الطبيعة «رسالة حضارية» أخرى! جعل من عبارات: «قهر الطبيعة » و«السيطرة عليها» و«تسخيرها للإنسان» عناوين عليها.

ولأن هذا المنهج الحسى والمادى، لا يعترف بغير الواقع المحسوس، ولا يؤمن بغير عالم الشهادة فلقد أثمر «الدهرية» التى لا ترى للحياة الإنسانية مقاصد غير «الوفرة المادية» التى تحقق للإنسان لذاته وشهواته، التى لاتتناهى عند حدود!.. وبواسطة القسوة العنيفة، والصراع الذى لا يعرف القيود..

لقد أثمر هذا المنهج فى المعرفة الغربية علوما ومعارف ومذاهب تحقق للإنسان «قوة المفترس» الذى يأكل فى سبعة أمعاء بينما عجزت عن تحقيق الإشباع الروحي لهذا الإنسان، فاختل توازنه عندما لبت له حاجات الجسد، دون حاجات الروح.. حتى لقد أدى هذا الخلل إلى تهديد الجسد ذاته بالدمار، لغياب دور الروح فى ترشيد الإشباع المادى لجسد هذا الإنسان.

✿ ✿ ✿

إن ما أشرنا إليه من تحولات جديدة فى فلسفة العلم الغربى المعاصر.. تحولات عن حسية المعرفة وماديتها .. هى حوافز لمزيد من ثقتنا بمنهجنا

الإسلامى المتميز فى المعرفة.. لابد وأن تدفعنا إلى مزيد من الجهد، لبلورة المنهج ــ منهج إسلامية المعرفة ــ وصياغة علومنا الإنسانية وفلسفة علومنا الطبيعية وفقا له.

وإن ما نشهده من سقوط وتراجع الكثير من مذاهب الغرب ونظرياته، التى بهرت الأبصار لعقود عديدة من الزمن.. سقوطها وتراجعها، كحال الفجر الكاذب، وكشأن الأمراض التى تكتسحها الصحة والعافية.. لهو حافز آخر لمزيد من الجهد الذى يجب أن يبذل فى هذا الميدان.. وإلا فَمَنْ ذا الذى لا يكتشف فى سقوط وتراجع «الماركسية»، و«الداروينية»، و«الوجودية»، و«الفرويدية»، والكثير من مذاهب ومناهج البحث والنقد فى الفنون والآداب.. من ذا الذى لايكتشف فى ذلك ووراءه خلل حقيقى وأكيد فى المنهج المادى والحسى للمعرفة التى أثمرت هذه المذاهب والنظريات؟!.. ويرى فى هذا تأكيدا وإلحاحا على ضرورة بلورة المنهج البديل؟!..

لقد ظلمنا بجمودنا وتقليدنا لـ«تخلفنا الموروث» المنهج الإسلامى المتميز فى المعرفة، عندما وقفنا عند تراث عصر تراجعنا الحضارى.. ولم نول المنهج القرآنى فى المعرفة، الذى واجه به علماء عصر نهضتنا مذاهب المعرفة الحسية عند الأمم والنحل الأخرى.. لم نوليه ما هو أهل له من الاهتمام.

وظلمنا هذا المنهج الإسلامى، مرة أخرى بتقليدنا «للنموذج الغربى» فى نظرية المعرفة.. فحلت الوضعية والمادية والتجريبية ــ بمعانيها الغربية ــ واحتلت المكان الأرفع فى علومنا الإنسانية والاجتماعية، وفى فلسفة علومنا الطبيعية.

ولقد كان هذا التقليد ــ لتخلفنا الموروث .. وللوافد غير العلمى، وغير الملائم ــ السبب الأول فى فقرنا الشديد فى الإبداع.

وما كان لأمة أن تبدع فى علوم حضارتها المتميزة، إلا إذا هى بلورت منهاجها المتميز فى المعرفة.. وإذا كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة مدعوة إلى بلورة «بديلها الحضارى»، كدليل لنهضتها المنشودة، وذلك حتى لا تسقط فى هاوية «التبعية» و«الاستلاب الحضارى».. أو تضل الطريق.. فإن المدخل إلى هذا الإنجاز هو «إسلامية المعرفة» حتى يأتى هذا «البديل إسلاميا» حقا.. فقضيتنا، إذن قضية «إسلامية المعرفة» -- هى جزء من «مشروع حضارى بديل» وليست مجرد قضية ثقافية خاصة بدوائر المثقفين والمفكرين..

إنها قضية أمة تريد أن تنهض، فى مواجهة تحديات شرسة.. وقضية دين، أنعم الله علينا بأن هدانا إلى التدين به..

وقضية حضارة صاغ أسلافنا العظام علومها ومعارفها بهذا المنهاج..

ولن يصلح البديل الحضارى الإسلامى المعاصر، الذى نريد به مواجهة الخلل المعرفى الحديث، إلا بما صلح به البديل الحضارى الإسلامى الأول، الذى واجه به أسلافنا الخلل المعرفى القديم.

إنها قضية«قديمة – جديدة» .. تمثل واحدة من أبرز القسمات التى تميز ويتميز بها الإسلام.. الدين.. والحضارة.. على غيره من النحل والفلسفات والحضارات.

إن «إسلامية المعرفة» تعنى : «حضارة ــ مؤمنة» تقوم على «عقلانية . . متدينة» ، يبدعها «علماء ــ هم أكثر الناس خشية لله»..

● وإذا كانت « الوضعية الغربية » ، التـى عزلـت « المعرفـة » عـن «الديـن.. والوحـى.. ونبـأ السماء» .. بـل وجعلـت « الديـن: وضعـا بشريا» !.. إذا كانت هذه « الوضعية » قد أثمـرت ـ وأثمرهـا ـ نمـوذج فيلسوفها «أوجست كونت».. ذلـك الـذى قطـع المحـاضرات التـى بـدأ إلقاءهـا سـنة ١٨٢٦م (الفلسـفة الوضعيـة) ـ وهـى التـى كونـت «مؤلفـه الرئيسـى» – قطعـهـا بسـبب إصابتـه بمـرض عقلـى!.. أعقبه محاولتـه الانتحار غرقا فى نهر السين سنة ١٨٢٧م لفرط اليأس والقنوط..

والذى تعرف على «كارولين ماسان» – وهى بغى ـ فسـاعدته أثنـاء احترافها للبغاء!.. ثـم تزوجـهـا!.. فلمـا انفصـل عنـهـا هـام حبـا بـامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة البوليس ـ هـو «كلوتيلـد دى فـو»، فكان حبه لها ـ كما يقـول مؤرخـو فكـره ـ السـبب فـى اتخـاذ كتاباتـه طابعا جديدا. فقـال بخضوع العقـل للقلـب!.. ودعـا إلى «تعـاليم الديـن الوضعى»[1]..

إذا كان هذا هو حال «علم» و «علماء» المعرفـة الحسـية، و «الفصـام النكد» بين «الأرض والسماء» .. بين «الكون والوحـى» .. بين «الدنيا والآخرة» .. بين «المدنى والشرعى» ..

● فإن لإسـلامية المعرفـة شـأنا آخـر، وثمـرات مغـايرة، ونمـاذج مـن العلماء مختلفين..

لقد كان عالمنا أبو عثمان عمرو بـن عبيـد (٨٠هـ – ١٤٤هـ/ ٦٩٩م- ٧٦١م) فارسا من فرسان الثورة فى سبيل الشورى والحريـة والعـدل.. وصرحا من صـروح العقلانيـة الإسـلامية التـى واجـهت مقـولات الشـرك

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٢٦٦ ، ٢٦٧.

والزيغ والإلحاد.. وفى ذات الوقت كان الرجل الربانى الذى تضرب بتقواه الأمثال!.. ويشير الناس إليه، إذا رأوه، قائلين : «هذا خير الناس» ..

إنه «الثائر» الذى يقول : « إن ذكر غضب الرب يمنع من الغضب»

والفيلسوف العقلانى ، الذى يدعو ربه فيقول : «اللهم اغننى بالافتقار إليك! ولا تفقرنى بالاستغناء عنك! . . اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة!»..

وهو القائد المطاع فى قومه وأنصاره . . والذى يحج إلى بيت الله الحرام، سيرا على قدميه ــ من البصرة إلى مكة ــ أربعين مرة، فى أربعين عاما.. يمشى على قدميه، وخلفه بعيره، يحمل عليه الفقراء والضعفاء !(١)..

هذه هى «بضاعتنا».. وتلك «بضاعة» الوضعيين ــ الماديين.

إنه نسق فكرى متكامل .. وبديل حضارى متميز لإعادة التوازن الذى أصابه الخلل بالانحراف «الحسى» و«المادى» ذلك الذى أقام «الوضعية.. المادية» العرجاء!..

---

(١) انظر دراستنا عنه ، بكتابنا (مسلمون ثوار) ص ١٦٠ ــ ١٧٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

المصادر

● القرآن الكريم .

● كُتب السنة :

«صحيح البخارى » طبعة دار الشعب ـ القاهرة

«صحيح مسلم» طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م

«سنن الترمذى » طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧م

«سنن النسائي» طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م

«سنن أبى داود » طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م

«سنن ابن ماجة » طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م

«سنن الدارمى » طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م

«مسند الإمام أحمد» طبعة القاهرة سنة ١٣١٣هـ

● الكتب المطبوعة :

آدم متز : (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

ابن جلجل : (طبقات الأطباء والحكماء) تحقيق : فؤاد سيد، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م.

ابن القيم : (إعلام الموقعين) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م، (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م.

ابن منظور : (لسان العرب) طبعة دار المعارف ـ القاهرة.

البلخى ، والقاضى عبد الجبار، والحاكم الجشمى : (فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة) تحقيق : فؤاد سيد . طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

التهانوى : (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة الهند سنة ١٨٩٢م

الجرجانى (الشريف) : (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م

جيوم : (الفلسفة وعلم الكلام) ترجمة جرجيس فتح الله طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ – ضمن كتاب (تراث الإسلام).

روبرت م . أغروس ، جورج ن . ستانبسيو : (العلم فى منظوره الجديد) ترجمة كمال خلايلى . طبعة الكويت سنة ١٩٨٩م.

حسين مؤنس (دكتور) : (أطلس تاريخ الإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م

روزنتال (م) ، يودين (ب) : (الموسوعة الفلسفية) ترجمة : سمير كرم، طبعة بيروت سنة ١٩٧٤م.

زكى نجيب محمود (دكتور) (إشراف) : (الموسوعة الفلسفية المختصرة) . طبهة القاهرة سنة ١٩٦٣م .

سانتيلانا : (القانون والمجتمع) ترجمة جرجيس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م ضمن كتاب (تراث الإسلام).

الطهطاوى (رفاعة رافع) : (الأعمال الكاملة) ج٤– دراسة وتحقيق: د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م

عبد الوهاب الكيالى (دكتور) (إشراف) : (موسوعة السياسة) طبعة بيروت سنة ١٩٨٣م.

مجمع اللغة العربية ـ القاهرة : (معجم ألفاظ القرآن الكريم) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م، (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م

محمد أمزيان : (منهج البحث الإجتماعى بين الوضعية والمعيارية) ـ طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى . واشنطون سنة ١٩٩٢م.

محمد عمارة (دكتور) : (الطريق إلى اليقظة الإسلامية) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م ، (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م

محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب . القاهرة

مراد وهبة (دكتور) ، يوسف مراد ، يوسف شلالة : (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م

نلينو : (محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية) ترجمة : د. عبدالرحمن بدوى طبعة القاهرة ضمن كتاب التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥

هارى . و هازارد : (أطلس التاريخ الإسلامى) ترجمة إبراهيم زكى خورشيد طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥م

وينسنك (أ . ى) ـ وآخرين : (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف) طبعة ليدن ١٩٣٦م - ١٩٦٩م

اليونسكو : (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥م

فهرس

الموضوع	الصفحة


العدد القادم
العالم العربى
عند مفترق الطرق
دكتور محمد نعمان جلال

في الكتبات

المسلمون والنظام العالمى الجديد

د. عبد الله الأشعل

إشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الإشتراك السنوى:

- داخل جمهورية مصر العربية ٣٦ جنيهاً

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٥٠ دولاراً أمريكيًّا

- الدول الأجنبية ٧٥ دولاراً أمريكيًّا

تسدد قيمة الإشتراكات مقدماً نقداً أو بشيكات بإدارة الإشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

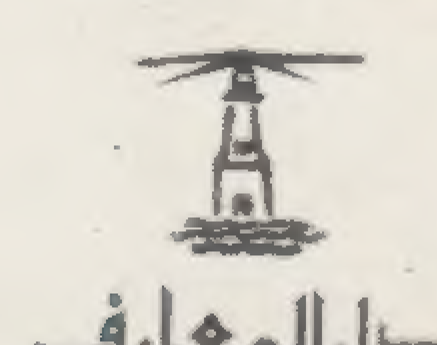
أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة.

رقم الإيداع	١٩٩٩/٧١٧٠	
الترقيم الدولى	977-02-5834-2	ISBN

١/٩٩/٣٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

هل هناك علاقة بين الإسلام والمعارف الإنسانية ؟ إن الكثيرين لا يجادلون فى وجود فلسفة مادية، وعلم إجتماعى ماركسى، وسياسات ليبرالية - أى وجود علاقات للمرجعيات الوضعية بالمعارف الإنسانية - لكنهم يرفضون هذه العلاقات إذا كانت المرجعية هى الإسلام!! وهناك من يخشى أن تعنى إسلامية المعرفة وجود كيمياء مسلمة وأخرى كافرة! وهناك من يتوهم أن إسلامية المعرفة هى تزيين العلوم الغربية بآيات من القرآن الكريم ! وللحوار مع كل هؤلاء، وصولاً إلى كلمة سواء، يصدر هذا الكتاب.



دار المعارف

٠٤٠٧٠١٨/٠١